المصادر العربية لتاريخ شرق إفريقيا

للدكتور جمال زكريا قاسم

تقتضى دراستنا للمصادر العربية التى تعرضت لتاريخ شرق إفريقيا أن نقسمها إلى المصادر العربية العامة ، والمصادر المحلية ، كما يقتضى تسهيل الدراسة تقسيم شرق إفريقيا إلى العصور التاريخية التى مر بها والتى يمكن استجلاء بعض معالمها بقدر مانجده متوافراً أمامنا من المادة المستقاة من هذه المصادر بنوعيها . وسوف نقتصر في تعرضنا للمصادر التاريخية العربية عن شرق إفريقيا على منطقة ساحل شرق إفريقيا التى يمكن تحديدها بخليج دجادو في الجنوب إلى رأس جردفون في الشمال ، وهى المنطقة الساحلية التى كان يطلق عليها العرب برالزنج ، وما يليها من الداخل ، أما منطقة شرق إفريقية الواقعة شمال رأس جردفون فنرجئها إلى دراسة تالية بدأنا في إعدادها . والسبب في ذلك التقسيم يرجع في الدرجة الأولى إلى أن المنطقة الشمالية مرت بتطورات تاريخية تختلف عن التطورات التاريخية التى شهدتها المنطقة الساحلية الجنوبية من شرق إفريقيا وهى موضوع الدراسة .

وقد تميزت هذه المنطقة من الساحل باصطدامها مع البرتغاليين ، ثم بقيام دولة عربية استطاعت أن تجمع تحت لوائها جميع إمارات الساحل ، ونرى أن نقسم التاريخ الذى مرت به هذه المنطقة إلى : العصر القديم — العصر الإسلامى — العصر البرتغالى — العصر العماني ، ثم نختتم هذه الدراسة بخضوع المنطقة للسيطرة الاستعمارية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، غير أن ما يلاحظ أن الفترة التى سبقت مجئ البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر لاتزال تلفت أنظار الباحثين وتدفعهم إلى استجلاء الكثير من معالمها ، لأن هذه الفترة كانت فيها المنطقة بعيدة عن مجال الاحتكاكات الأوربية ، ولذلك لاتوجد بطبيعة الحال مصادر أوربية أصيلة إلا منذ أن وصل البرتغاليون إلى المنطقة وبدأت تظهر المؤلفات عنها

ابتداء من القرن السادس عشر والتى بدأت بما كتبه الرحالة البرتغاليون من رواد حركة الكشف الجغرافي من أمثال فاسكودى غاما Gama وكاستنهيدا وجويز وباربوسا وغيرهم كثيرون. وإذا كان يسهل على المؤلف الكتابة في تاريخ شرق إفريقيا الحديث فإن الصعوبة لاتزال تواجه الباحثين عند تصديهم لدراسة بعض جوانب من تاريخ الشرق الأفريقى القديم أو الوسيط، فالتاريخ القديم لاتزال حتى الآن تتشكل ملامحه وفقاً على النتائج التى تتوصل إليها بعثات الكشف والتنقيب التى بدأت تمارس نشاطها في السنوات الأخيرة في محاولات مطردة لاستجلاء ماغمض من تاريخ هذه المنطقة ، ثم هناك أيضاً ذلك التراث الأغريقى النادر المعروف بالدليل الملاحى للبحر الأرتيرى الذى كتبه أحد الأغارقة في النصف الثاني من القرن الأول الميلادى[1] . أما التاريخ الوسيط لشرق إفريقيا فيطلق عليه بالعصر الإسلامى ، ويمكن تحديده من القرن السابع الميلادى إلى وصول البرتغاليين إلى شرق إفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، ففى خلال هذه الفترة سيطر المسلمون من العرب على هذه المنطقة ، ومعلوماتنا عن هذه الفترة لاتزال تحتاج إلى مزيد من الاتساع . ونحن نعتمد في معلوماتنا عن تاريخ هذه المنطقة على المصادر المحلية وأقصد بها المؤلفات التى كتبها أناس عاشوا في المنطقة وهى مدونه باللغتين السواحلية والعربية ، ويبرز منها كتاب السلوة في أخبار كلوة ، المأخوذ عن سنة الكلاوية، ويتعرض هذا الكتاب لتاريخ المنطقة من القرن العاشر الميلادى إلى وصول البرتغاليين إلى كلوة في أوائل القرن السادس عشر الميلادى وسوف نتعرض لذلك الكتاب فيما بعد .

أما المصنفات العربية العامة فإنها كثيرة ومتنوعة وهى تشكل مادة أساسية يمكن التعرف بها على تاريخ هذه المنطقة على الرغم من أن القليل منها هو الذى يلقى الضوء على الساحل .

وسوف نتعرض في هذه الدراسة للمصادر العربية التى يمكن الاستدلال منها على تاريخ شرق إفريقيا سواء العام منها أو المحلى مع ملاحظة أنه لاتوجد

---

(١) انظر دكتور جمال زكريا قاسم : استقرار العرب فى ساحل شرق افريقيا العدد العاشر من حوليات كلية الآداب ـ جامعة عين شمس .

لدينا مصادر عربية تعرضت لتاريخ المنطقة قبل القرن التاسع الميلادى ولكن ابتداء من هذا القرن تطرد المعلومات التى يمكن تجميعها من هذه المصادر التى أشرنا إليها بنوعيها .

وقد يكون من المناسب أن نبدأ بالمصادر العربية العامة التى تكون سلسلة متصلة الحلقات تبدأ من القرن التاسع الميلادى وتنتهى في القرن الخامس عشر الميلادى، ويمكن أن نتتبع من خلالها تقدم معلوماتنا واتساعها من قرن إلى آخر ولكن الذى يستوجب الأسف حقيقة أن تقدمنا في جمع المعلومات ليس مطرداً بالنسبة لتوالى السنين فهذه المصنفات ، باستثناء القليل منها ، ليست موفية بالحاجة في حين أن واضعيها العرب كانوا أولى من غيرهم بأن يزودونا بمعلومات وافية عن بلاد كانت تشكل جزءاً من العالم الإسلامى . ولكن قد يكون ذلك راجعاً في تقديرنا إلى أن هذه المناطق ، عدت في ذلك الوقت متطرفة عن مركز العالم الإسلامى ، ومن ثم فلم تحظ بشئ كبير من اهتمام هؤلاء المصنفين . ومن ناحية أخرى فإن كثيراً مما كتبه العرب في هذه الفترة كانت تخالطه الأسطورة أو الخيال إذ كانت منطقة شرق إفريقيا من المصادر الهامة لأساطير الجغرافية في الأدب العربي[١]، ولكن ذلك لايمنع من استخلاص بعض الحقائق والصور الحية عن تاريخ المنطقة اعتماداً على هذه المؤلفات .

وعلى الرغم مما يأخذه المستشرقون على هذه المصنفات من قصور واضح بالنسبة لمعالجتها منطقةشرق إفريقيا فإن هذه المصنفات مع ذلك، وفي تقديرى، ذات أهمية بالغة، ويكفى أن نقول أنها حاولت إلقاء بعض الضوء على شرق إفريقيا في الوقت الذى لم تذكر فيه المصادر الأوربية شيئاً عن هذه المنطقة باستثناء ماذكره ماركوبولو Marcopolo الذى قام برحلاته في عام ١٢٩٥ وأورد بعض المعلومات الطفيفة عن مقديشيو وزنجبار وتجارة الأخيرة بالعاج على وجه خاص[٢] .

---

(١) كراتشكوفسكى (اغناطيوس بوليانوفتش) تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب (مترجم) القسم الأول ص ١٤١

(٢) Cf. Travels of Marco Polo Trans A. Ricci, pp. 341-345.

ويمكن أن نعرض للمصنفات العربية التى أشارت إلى شرق إفريقيا ابتداء من القرن التاسع الميلادى وهى أول ما يمكننا الوصول إليه من هذه المصنفات. ويبرز أمامنا في منتصف ذلك القرن سليمان التاجر، وكتاباته من النوع الذى نسميه أدب المغامرات أو القصص البحرى، وقد ترك التاجر سليمان وصفاً حياً للسواحل والجزر والموانى المختلفة والمدن وسكانها والمحاصيل والمنتجات وسلع التجارة، كما نجد في كتاباته وصفاً شيقاً لأخبار الملاحة في المحيط الهندى وقد وصف بلاد الزنج بقوله « وبلادهم واسعة الأرجاء ونباتاتهم لاتنمو إلا سوداء في لون بشرتهم »، ونظراً لعدم وجود معلومات عن سليمان نفسه فإن البعض قد تشكك في نسبة القصص إليه إلى أن أكد المستشرق الفرنسى جبرييل فراند Ferrand صحة نسبة هذه القصص إليه. وقد لقيت هذه القصص عناية خاصة من العلاّمة رينو Reinaud في منتصف القرن التاسع عشر كما أخرج سوفاجيه آخر دراسة لها في السنوات الأخيرة[١].

وفي عام ٨٨٦ أشار ابن خرداذبه لبلاد الزنج[٢]. والمعروف كما يقرر كراتشكوفسكى أن جميع مؤلفات ابن خرداذبه وأشهرها كتاب المسالك والممالك لانعرفها إلا من أسمائها فقط، ومن المقتطفات الموجودة لدى المؤلفين المتأخرين أو الإشارات إليها في المراجع المختلفة[٣].

وفي أوائل القرن العاشر الميلادى يسترعينا كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ٢٩٠ - ٩٠٣م، ثم الجغرافي الفارسى أبو على بن رسته في كتابه الأعلاق النفيسة، الذى كتبه بعد عشر سنوات من ابن الفقيه ٣٠٠-٩١٣ والذى لم يبق منه سوى الجزء السابع في الفلك والجغرافية، ولكن هذين المصدرين أو المادة المتبقية لنا منهما على الأقل لم يتعرضا إلا بإشارات بسيطة إلى بلاد الزنج التى اعتبرها ابن رسته إحدى حدود العالم الذى كان معروفاً في ذلك الوقت.

---

(١) كراتشكوفسكى تاريخ الأدب الجغرافى القسم الأول ص ١٤١
(٢) دافيدسون، افريقيا تحت أضواء جديدة ترجمه جمال أحمد ص ٢١٨
(٣) كراتشكوفسكى ـ تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب القسم الأول ١٥٥ ـ ١٥٦

ثم تبدأ المعلومات تتضح بصورة أكبر حينما نطالع ما كتبه أبوزيد السيرافي[١] (٨٧٧ — ٩١٥) الذى يعتبر أول من قدم لنا معلومات متصلة عن المنطقة .

وكان السيرافي يعاصر المسعودى ولكنه مات قبل أن يبدأ المسعودى رحلاته في شرق إفريقيا . ولم يكن أبازيد السيرافي ، وينسب إلى سيراف على الساحل الشرقي للخليج العربي ، رحالة أو جواب آفاق وإنما كان مؤلفاً اقتصر على جمع وتدوين قصص التاجر سليمان[٢]، وأضاف عليها ماعرفه من روايات نقلها عن التجار الذين جابوا البحار الشرقية بعد أن غير وبدل من كيانها، ولذلك تبدو كتاباته على أنها نوع من أساطير البحار . ومع ذلك فإن السيرافي يمكن اعتباره من أول المصنفين الذين كتبوا باللغة العربية يؤكد اتصال العرب بالساحل الشرقي لأفريقيا وهو يورد لنا ذلك في حديثه عن بلاد الزنج فقد ذكر عنها بالإضافة إلى ما نقله عن التاجر سليمان أن بها ملوك يغزو بعضهم بعضا وأن أهل الزنج يحترمون العرب الذين لهم في قلوبهم هيبة عظيمة فإذا عاينوا رجلاً سجدوا له وقالوا هذا من مملكة ينبت بها شجر التمر لجلال التمر عندهم وفي قلوبهم[٣]. والواقع أن جانباً كبيراً من المعلومات المتعلقة بشرق إفريقية في هذا العصر كانت مادة طيبة لمغامرات السندباد البحرى ولقصص ألف ليله التى كانت تتجمع في ذلك الحين ، إذ من المؤكد أن تكون بعض هذه القصص استوحيت من رحلات العرب في شرق إفريقية[٤]، بل إنه يوجد في ماليندة صخرة يسميها الأهالى هناك بصخرة السندباد .

---

(١) انظر سليمان التاجر وأبو زيد السيرافى .

Gabriel Ferrand, Relation de Voyage Tome I p. 35 FF.

(٢) راجع رينو Reinand عن أبى زيد السيرافى وسليمان التاجر

Cf. Relation de Voyages fait par les Arabes et Persans a l'inde et de la Chine, Tome I pp. LV FF.

(٣) انظر سلسلة التواريخ ـ دار الطباعة السلطانية بباريس ١٨١١ ويوجد هذا الكتاب ملحقا بكتاب رينو

Cf. Reinand, Relation de voyages Tome II pp. 131 ff.
Texete Arabes imprime en 1811 par le soin de jeu lanqlès.

(٤) انظر عن الرحلات العربية فى المحيط الهندى

Reinand, Relation des Voyages fait par les Arabes et Persans dans l'inde et de la Chine 2 Tomes Paris 1845.

وتطرد معلوماتنا عن القرن العاشر بظهور المسعودى الذى بدأ رحلاته في شرق إفريقيا بعد وفاة السيرافي مباشرة، فالمعروف أن المسعودى تردد على المنطقة في الفترة من ٩١٦ إلى ٩٢٦ إذ كان له أكثر من رحلة في المنطقة ويصفه بعض المستشرقين بهيردوت العرب[١]. ولكن للأسف أننا لا نملك من آثار المسعودى إلا كتابين لاسبيل إلى التعرف على دنيا العرب التجارية في عهدها الزاهر الا بهما خاصة ما اتصل منها بساحل إفريقيا الشرقي، وأشهر هذين السفرين كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر، أسماه هكذا ليثير رغبة القراء في الاطلاع على ماكتبه . ويبدو أن هذا السفر الخالد انتهى من تصنيفه في عام ٩٤٧ وليس هذا الكتاب مرجعاً للحقائق وتفاصيلها الدقيقة فحسب وإنما هو ولا ريب خير ماكتب رحالة العصور الوسطى .

ولكن ما يؤخذ على المسعودى أنه على الرغم من إفاضته بالحديث عن شعوب الزنج إلا أنه لايتحدث عن اتصالات مباشرة وقعت بينه وبين سكان المناطق التى زارها مما يجعلنا نذهب إلى القول أن معظم المعلومات التى أطلعنا عليها المسعودى، إن لم تكن كلها، ربما يكون قد أخذها من أحاديثه مع البحارة الذين سافر معهم في رحلاته . ومع ذلك فإن المسعودى بكتاباته قد أضاء الطريق أمام الباحثين في تاريخ هذه المنطقة[٢] .

تحدث المسعودى عن بحر الزنج ووصفه بالخطورة في عبارة شهيرة قال المسعودى « ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم واليمن وأصابنى فيها من الأهوال مالا أحصيه كثرة فلم أجد أهول من بحر الزنج . . . فموجه عظيم كالجبال الشواهق وهو موج أعمى يريدون بذلك أنه يرتفع ارتفاع الجبال وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية لاينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد » وقدوصل المسعودى إلى شرق إفريقيا بصحبة بحارة من عمان وسيراف ، يقول المسعودى وقد ركبت هذا البحر من مدينة سنجار

---

(١) Freeman — Grenville The Mediveal History of the Coast of Tanganiyka p. 40 Berlin 1962.

(٢) بازل دافيدسون (مترجم) افريقيا تحت أضواء جديدة ص ٢٢٠ — ٢٢٥

(صحار) من بلاد عمان ، وسنجار قصبة بلاد عمان في جماعة من نواخذه السيرافيين وهم أرباب المراكب ، وركبت فيه سنة أربع وثلثمائة من جزيرة قنبلو إلى عمان وذلك في مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم بن جعفر السيرافي »[١] .

وعلى الرغم من أن القرن العاشر الميلادى شهد تأسيس كثير من المدن والإمارات العربية التى قامت في ساحل شرق إفريقيا فإن المسعودى لا يحدثنا عنها وإنما اقتصر في حديثه عن الزنج وأنهم كانوا مجموعات من الشعوب وليسوا شعباً واحداً يعيشون في إقليم يمتد مسافة ٢٥٠٠ ميل على الساحل صوب الجنوب في المنطقة الممتدة فيما يعرف حالياً بالقرن الإفريقى شمالا إلى موزنبيق جنوباً، وفيما يبدو أن المسعودى قد وصل إلى أقصى منطقة وصل إليها العرب فقد ذكر أنه وصل إلى أقاصى بلاد الزنج وإليها تقصد المراكب العمانية والسيرافية وهى غاية مقاصدهم في أسافل بحر الزنج ، وذكر أن أقاصى بحر الزنج هو بلاد سفالية وأقاصيه بلاد واق الواق وهى أرض كثيرة الذهب كثيرة العجائب خصبة حارة، ولم يذهب أحد من قبله ولا من بعده من الرحالة العرب وراء هذه المنطقة . والأرجح الذى يقول به المؤرخون العرب هو أن العرب لم يجدوا ما يسافرون من أجله فلم يكلفوا أنفسهم مشقة بعد هذه المنطقة إذ كانت سفالية تمدهم بكل ما تستطيع مراكبهم أن تحمل من عاج أو ذهب .

وقد بدأ المسعودى قصته عن شرق إفريقيا بالأسطورة القديمة عن الهجرات التى تحدثنا عن أبناء كوش وكيف اتجهوا يميناً بين الشرق والغرب وسكنوا الجزء الشرقي في أفريقيا والجنوب الشرقي وكونوا شعوب النوبة والبجة ، والزنج وحدهم هم الذين ثابروا سيرهم جنوباً وراء النيل الأعلى وهم الذين فيما يقول المسعودى اتخذوا دار مملكة وملكوا عليهم ملكاً سموه وقليمن وهى سمة لملوكهم في سائر الأمصار ويركب وقليمن — وهو يملك ملوك سائر الزنج — في ٣٠٠ فارس ودوابهم البقر وليس في أرضهم خيل

---

(١) انظر المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، نشر دار الرجاء بالقاهرة جـ ١ ص ٣٢٨ — ٣٣٣

ولا إبل ولا يعرفونها وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد . ولعل أهم وأمتع ما كتبه المسعودى هو حديثه عن هذه المملكة وأشار إلى غناها بالذهب وأن الزنج بنوا عاصمتهم في أقصى الجنوب لتكون على مقربة من المناطق التى يستخرج منها الذهب الذى يصدرونه بكميات وافرة ، ولعل المسعودى يكون بذلك أول من أشار إلى مناجم الذهب في روديسيا . ولكن المسعودى لايخبرنا أين كانت عاصمة الوقليمن ولا في أى سنة أنشأت غير أنه من المستبعد أن تكون هذه العاصمة في سفالية لإنها كانت محط تجار العرب في ذلك الحين . وقدذكر ابن سعيد أنعاصمة وقليمن كانت في سنا وربما هى نفسها التى اكتشفها البرتغاليون على بعد ١٥٠ كيلو مترا من الساحل على نهر الزمبيرى وبنوا بها قلعة من أهم قلاعهم . وذكر المسعودى عن الزنوج بأنهم مهرة في أشغال المعادن وفي التجارة وفي الزراعة أيضاً حيث ذكر بعض محصولاتهم ، وفي صيد الأفيال لعاجها النفيس ،وأنهم يحرصون على الحديد أكثر من حرصهم على الذهب ، ولعل ذلك لكثرة إنتاجهم من الذهب ،وأن الزنوج يقتلون ملكهم حينما يجور عليهم وأن ملكهم يدعى وقليمن ومعناه ابن الرب الكبير الذى عندهم مالك السموات والأرض ويسمونه مكلنجلو ، وأنهم أهل خطابة وفصاحة بلغاء في أحاديثهم .

يقول المسعودى في اختصار جامع والزنج مع كثرة اصطيادها من الفيلة وجمعها لعاجه غير منتفعة بشيء من ذلك في آلاتها وإنما تتحلى الزنج بالحديد بدلا من الذهب والفضة ،ثم يذكر المسعودى ما يزرع الزنج وما يأكلون فيقول والغالب على أقوات الزنج الذرة ونبات يقال له الكلارى ويشبه القلقاس ومن غذائهم أيضاً العسل واللحم ، وللزنج جزر عدة قريبة من الساحل ينتفعون بما تنتج من فواكه ويحبون الخطابة وفن الكلام ولغتهم تعين على ذلك . ويقوم في القوم منهم رجل تقى يحثهم على طاعة الله والإمتثال بأوامره وينذرهم العقاب الأليم إن لم يخضعوا له ويذكرهم أكثر الأحيان بما حل بأسلافهم من خراب حين نسوا كلمة الله[1] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٣٣٣

وركز المسعودى في رحلاته في شرق إفريقيا على جزيرة قنبلو ذكر عنها أنها جزيرة حارة فيها قوم من المسلمين بين كفار الزنوج وكلهم في حكم أمير مسلم إلا أن لغتهم زنجية وتتردد عليها المراكب العمانية . وقد ذكر أنه وصل إلى قنبلو في رحلته من مدينة سنجار في جماعة من البحارة السيرافيين ثم عاد في عام ٣٠٤ من جزيرة قنبلو إلى عمان . ويبدو من كتابات المسعودى أن العرب كانوا قابضين على زمام الملاحة في المحيط الهندى خاصة الجزء الملامس لساحل إفريقيا الشرقي[١] .

وقد حدد المسعودى تاريخ استقرار المسلمين في قنبلو بقرن ونصف قرن من رحلته إذ قال إن المسلمين غلبوا على هذه الجزيرة وسبوا من كان فيها من الزنوج وذلك في بدأ الدولة العباسية . ولكن التاريخ الذى ذكره المسعودى لانكاد نطالع له أى ذكر لتأسيس أية إمارة عربية أو هجرة ملحوظة إلى شرق إفريقيا ، ولعل المسعودى تجاوز في تحديده نزول العرب بهذه الجزيرة بضع سنوات عن هجرة الزيديين وإذا صح هذا التجاوز وهو لايتعدى سنوات قليلة على أية حال نستطيع إذن أن نرجع نزول العرب في جزيرة قنبلو بأنه كان نتيجة لهجرة الزيديين إلى الساحل الشرقي لأفريقيا .

ولكن الموضوع الذى أثار الجدل هو أية جزيرة يعنيها المسعودى بقنبلو ؟ حقيقة أن المسعودى وضع بعض التحديدات الجغرافية الخاصة بموقع هذه الجزيرة ، ولكن نظراً لكثرة عدد الجزر الموجودة على ساحل شرق إفريقيا فإننا لانستطيع أن نحدد بالضبط واحدة منها .

وهنالك بعض الباحثين من أمثال رينو **Reinaud** يميلون أن تكون مدغشقر هى الجزيرة المقصودة فإن التحديدات التى أشار إليها المسعودى تكاد تنطبق على جزيرة مدغشقر إلى حد كبير ، وإن كنا نعجب لماذا لم يتحدث المسعودى عن كبر مساحة هذه الجزيرة إذا صح أن تكون قنبلو هى جزيرة مدغشقر التى كان يعنيها .

---

(١) راجع فى ذلك حورانى ـ الملاحة البحرية فى المحيط الهندى وكذلك آدم متز الحضارة الاسلامية (مترجم) جـ ٢ ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ .

(٢) **Cf. Reinaud, Relation de voyages Tome I pp. 131-133.**

أما القبطان جيان Guillain فيميل إلى اعتبار هذه الجزيرة إحدى جزر القمر ويحددها بالجزيرة الكبرى على وجه خاص وهى جزيرة ياقوت أو الأنجزيجة ، كما كانت تعرف في ذلك الحين ، والتى سيطلق عليها الأدريسى فيما بعد بجزيرة الزانج ولكن التحديدات التى أشار إليها المسعودى تختلف مع موقع الجزيرة خاصة من حيث تحديده أنها تقع على مسافة خمسمائة فرسخ من عمان إذ أنها في الواقع تقع إلى مسافة أبعد من ذلك(١) .

ويرى البعض اعتبار جزيرة قنبلو هى جزيرة زنجبار وعلى الرغم مما يستدل عليه من التاريخ المحلى لسلطنة كلوة أن العرب المسلمين وصلوا إلى هذه الجزيرة قبل زمن من رحلة المسعودى إلا أننا لا نستطيع مع ذلك أن نزعم أن تكون قنبلو هى إحدى جزر بمبا أو مافيا أو زنجبار لأننا نصطدم مرة أخرى بالتحديدات التى أوردها المسعودى بالنسبة لموقع جزيرة قنبلو التى أكد فيها أن الجزيرة تبعد عن القارة بمسيرة يوم أو يومين بينما هذه الجزر التى أشرنا إليها ترى من الشاطىء ولا تبعد عنه سوى ساعات قليلة ، على أن الاعتراض الأهم ما أكده المسعودى أن هذه الجزيرة يحكمها مسلمون يتكلمون لغة الزنوج ولما كنا نعرف أن العرب هم الذين تغلبوا على هذه الجزر فبطبيعة الحال كانوا يتحدثون اللغة العربية ، ولهذه الأسباب لايمكن أن نعتبر واحدة من هذه الجزر الصغيرة ما عناها المسعودى بجزيرة قنبلو . أما فراندفلم يقطع برأيه في جزيرة قنبلو واكتفى بأن اعتبرها إحدى الجزر التى تقع في جنوب المحيط الهندى(٢) .

وعلى الرغم مما أوضحه رينو أن تكون جزيرة قنبلو هى المقصودة بجزيرة مدغشقر إلا أننا لانميل إلى الأخذ برأيه ونميل إلى الأخذ برأى جيان في أن تكون قنبلو هى إحدى جزر القمر . ونستند في ذلك على أن جيان ، وهو ربان سفينة ، على علم بالملاحة بطبيعة الحال قد أكد أنه لايمكن الوصول إلى جزيرة مدغشقر في زمن المسعودى إلا بالوصول أولا إلى جزيرة القمر فكيف

---

(١) جيان ــ وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقية ص ٩٣

(٢) Ferrand, op. cit., Tome I p. 91.

لم يحدثنا المسعودى عن تلك الجزيرة ؟ ومن ناحية أخرى أن جزيرة مدغشقر كان لها لغة خاصة تختلف عن لغة الزنوج وذلك اعتماداً على أبحاث جبرييل فراند Ferrand ، ثم أنه لايمكن التسليم بفتح المسلمين لجزيرة كبيرة كهذه وتغلبهم عليها في وقت بدء هجراتهم إلى المنطقة .

وأخيراً فإن المسعودى على الرغم من أنه قدم معلومات هامة عن شرق إفريقيا إلا أنه ، وهذا مما يستوجب الدهشة حقاً ، لم يذكر لنا شيئاً عن أحوال المناطق التى حدث بها احتكاك مباشر بين العرب ومناطق الساحل التى رحل إليها . ومما لايقبله المنطق بطبيعة الحال أن يكون المسعودى قد قام برحلاته بقصد مشاهدة جزيرة قنبلو دون سواها ، وأن السفن التى كانت تحمله لم ترس على جهة من الجهات غيرها واكتفى بإيراد الروايات التى سمعها من البحارة من البلاد الداخلية ، إذ أننا لانعتقد أن يكون المسعودى قد تعمق في الداخل ويمكن أن نسلم أن المسعودى ، لعدم اتجاهه إلى دراسة الجهات التى مر بها لم يذكر المراكز التى أسسها العرب أو التى أستكشفوها على الساحل منذ عهد بعيد قبل رحلة المسعودى إلى هذه المنطقة ، وإن كان ذلك مما يستدعى الأسف لأن الزمن الذى جاء فيه المسعودى هذه المناطق كان عهد تأسيس عدة مدن صارت فيما بعد من أهم مراكز هذه الشواطىء وأرفعها شأناً .

وفي تقديرى أن المسعودى لم يحاول لسوء الحظ أن يضع لنا صورة عما شاهده بنفسه إذ أنه لو فعل ذلك لكان من المؤكد أن يأتي لنا بأخبار أوفي وإنما اكتفى المسعودى ، كما سبق أن أشرنا ، بذكر ما توارد إليه من أحاديث البحارة الذين كانوا يصلون إلى تلك المناطق[1]. ولو لم يذكر المسعودى صراحة أنه شاهد بعض مناطق شرق إفريقيا لجاز لنا أن نتشكك في أنه لم يشاهد هذه البلاد مشاهدة عيان . ومع ذلك فإن شخصية المسعودى ربما تكون أكثر جلاء لو أن مؤلفاته الكبرى لم تمسسها يد الضياع ونخص منها بالذكر كتابيه الكبيرين أخبار الزمان ومن أباده الحدثان الذى يقع في ثلاثين جزءاً والكتاب الأوسط ، غير أن هذه المؤلفات مع الأسف لم تعرف إلا من خلال اقتباسات

---

(١) Freeman grenville, op. cit., p. 40.

ضئيلة ليست بذات أهمية فضلاً عن أن الشك يعتور صحة نسبتها إليه . ولا يوجد لدينا حالياً إلا مروج الذهب السابق إشارتنا إليه والذى اعتمدنا عليه في المادة التى ذكرناها هنا متعلقة بشرق إفريقية وهو أكثر مؤلفات المسعودى انتشاراً وإيجازاً ، كما يوجد من تراثه المتبقى كتاباً آخر بعنوان التنبيه والإشراف ومادته جغرافية في معظمها[١] .

ومن القدر المتيسر لدينا من كتابات المسعودى في القرن العاشر تجدب معلوماتنا عن منطقة شرق إفريقيا حتى القرن الثاني عشر إلى ما يقرب من مائتى عام لاتطالنا في أثنائها من المصادر العربية الهامة سوى عدة كتب أغفلت إلى حد كبير الحديث عن شرق إفريقيا ، فهنالك كتاب المسالك والممالك أو صورة الأرض لابن حوقل الذى وضعه في منتصف القرن التاسع الميلادى ، وعلى الرغم من أنه أورد بعض المعلومات التفصيلية عن القسم الشمالى من شرق إفريقيا خاصة مناطق الحبشة والنوبة إلا أنه لم يتعرض للقسم الجنوبي إلا بإشارات ضئيله ، فقد ذكر أنه من المستحيل السفر إلى بلاد الزنج لحرارتها الشديدة ولكننا مع ذلك نلحظ شيئاً هاماً وهو إشارته إلى بعض الشعوب البيضاء التى تتاجر معهم ولكنه اكتفى عند حد الإشارة إلى ذلك وهذا مما يستوجب الأسف أيضاً .

وبعد كتاب ابن حوقل لم يقدم لنا المقدسى (٣٣٥هـ/٩٤٦/٩٤٧م) في كتابه أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم شيئاً يمكن أن نضيفه إلى معلوماتنا عن شرق إفريقيا في خلال هذه الفترة ، فالمقدسى لم يذكر أكثر من أن الجزء الغربي من المحيط الهندى يبدأ بعدن وينتهى ببلاد الزنج وهم غير الزنوج الذين عرفناهم في الهند[٢] .

وفي القرن الحادى عشر وقبل أن نصل إلى الإدريسى ، وهو مصدر هام عن شرق إفريقيا، لانجد سوى الخوارزمى البيروني ١٠٣٠ (٤٤٠ هـ) في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخاليه الذى ذكر أن ساحل القارة الشرقي

---

(١) كراتشكوفسكى ـ الأدب الجغرافى عند العرب القسم الأول ص ١٧٨

(٢) Cf. Ferrand, Documents Historiques et geogrophiques relatifs al'indochine, Relation de voyages et Textes geographiques Arabes, Persans et Turks relatif a l'Exterme Orient de VIIIe au XVIIIe Siecles Tome I p. 117 Paris 1913.

والجزر الجنوبية منها تسكنها قبائل متفرقة من الزنج وأشار البيروني إلى جزيرة واق الواق وقد اعتبرها إحدى جزر القمر ، وذكر أن سكانها سود يغلب عليهم البياض ولكنهم يعتنقون عقيدة الهنود(١) ، كما تحدث البيروني عن شئون التجارة التى كانت قائمة بين سفالية والهند والصين ولكنه لم يعطينا معلومات مفصلة عن دور العرب في تلك التجارة وإن كان قد أشار إلى الجزء الغربي من المحيط الهندى الذى أطلق عليه بحر البربر ويمتد من عدن إلى سفالية الزنج لايتجاوزها مركب لعظم المخاطرة فيها(٢)،وفيما يبدو أنه قد توفرت للعرب قرب ذلك العصر معلومات عن ساحل إفريقية الشرقي إلى خط عرض ٢٠° جنوباً أما عن البلاد الواقعة إلى الجنوب من ذلك فقد كانت فكرتهم بصفة عامة تستند على الظن والتخمين ولو أن علمهم بالكوارث(٣)التى كانت تتعرض لها السفن تشير إلى معرفتهم بطريق غير مباشرة بمضيق موزنبيق (جبل الندامة)،وهنالك كتاب وضعه أحد الفرس ويدعى برزج بن شهريار في منتصف القرن الحادى عشر باللغة العربية ويتضمن رحلته إلى بلاد الزنج وفيما يبدو أنه كان يقصد ببلاد الزنج بلاد الهند وليس زنوج شرق إفريقيا لما يتضح من تسميته الكتاب بعجائب الهند، وتتضح لنا تلك الحقيقة في أن بعض المصادر العربية كانت تطلق على الهنود اسم الزنوج ولذلك لايمكن أن نعتبر هذا الكتاب من المصادر التى تعنينا في هذه الدراسة على الرغم من أنه أورد بعض المعلومات البسيطة عن جزيرة واق الواق وسفالية(٤) .

وتصمت المصنفات العربية حتى ينقطع هذا الصمت فجأة على أيدى جغرافي عربى أقام في صقلية في الفترة من ١١٠٠ إلى ١١٦٦ في بلاط الملك روجر الثاني Roger أحد ملوك النورمان وقد عرف الكتاب الذى وضعه بكتاب روجر وأسماه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق(٥) . ويتضح من كتاباته

---

(١) انظر البيرونى نقلا عن :
Gabriel Ferrand, op. cit., Tome I p. 163.

(٢) كراتشكوفسكى ــ القسم الأول ص ١٤١

(٣) المصدر السابق القسم الأول ص ٢٤٩

(٤) كتاب عجائب الهند لبرزج بن شهريار
Cf. Gabriel Ferrand, op. cit., Tome II p. 574.

(٥) انظر مادة الادريسى فى دائرة المعارف الاسلامية

عن شرق إفريقيا أن الأدريسى كان يأخذ مادته من الكتب الجغرافية السابقة عليه وكذلك من التقارير التى كان يتلقاها من المسافرين ومع ذلك فهو لايوضح لنا مصادره المباشرة عن المعلومات التى أوردها عن شرق إفريقيا ، وعلى الرغم من أنه كان يعرف المسعودى وأخذ عنه بعض الجوانب ، إلا أنه لم يشر إلى ذلك إشارة صريحة .

وأهمية كتاب الإدريسى أنه أول المصادر التى تتحدث عن مدن الساحل وجزره من ذلك كلوة التى لها تجارة هامة مع سفالية ، ومالينده وهى مدينة كبيرة ، ومع ذلك فإن الإدريسى لم يورد لنا معلومات وافية عن هذه المدن ويبدو أنه لم يهتم اهتماماً كافياً بالاستعلام عن تلك البلاد .

وإلى جانب كتاب الأدريسى عن تخطيط البلدان فقد وضع لنا أول خريطة عربية كانت أدق وأشمل من الخريطة التى وضعها بطلميوس وتعزز الخريطة كتابات كثيرة عن تعدين الذهب والحديد في سفالية وبعض مراكز في الداخل .

على أن الإدريسى لم يرحل إلى شرق إفريقيا كما فعل المسعودى ولكنه استمع أكثر وقرأ كثيراً فاتي بدقائق هامة عن هذا الإقليم . وقد انتهى الإدريسى من كتابه نزهة المشتاق في عام ١١٥٤ ولاشك أن الفترة التى كتب فيها الإدريسى هذا الكتاب كانت تجارة العرب متسعة في المنطقة اتساعاً كبيراً على أنه من الملاحظ أن الأدريسى لم يعن بتجارة العرب في الذهب والعاج والرقيق لأن هذه التجارة كانت معروفة في العالم العربي التجارى وإنما انصرف الإدريسى إلى الحديث عن تجارة جديدة هى تجارة الحديد، ويلاحظ أيضاً تغير أوجه الحياة من رحلة المسعودى إلى كتابات الأدريسى ما لينده التى لم تحظ من المسعودى حتى بذكر إسمها ، لأنها لم تكن تعنيه في شئ لعدم أهميتها، أصبحت في زمن الإدريسى مدينة الزنج ، ويحدثنا الإدريسى عنها فيقول إن الزنوج فيها يمتلكون مناجم الحديد ويستخرجونه منها ويتاجرون في الحديد المطاوع منه ويربحون من تجارتهم هذه أرباحاً كثيرة . وكذلك يتحدث

عن منبسة التى يشتغل أهلها في تجارة الحديد أيضاً مما يدل على الصلات التى كانت قائمة بين شعوب الداخل ومن يفد على الساحل من التجار العرب وغيرهم خاصة من الهنود حيث كانت السيوف تصنع في بلاد الهند من حديد شرق إفريقيا .

ويلاحظ أن الأماكن التى ذكرها الإدريسى منها ما لايزال موجوداً على الخرائط الحالية ولو بالتقريب كبراوة ومالينده ومنبسه ومنها ما اندرست معالمها ولاتزال تحت الكشف . وقد أكد لنا الإدريسى العلاقة بين العرب وساحل شرق إفريقيا ولكنه قصر هذه العلاقة عند حدود التعامل التجارى دون أن يعنى بدراسة المراكز التى أوجدها العرب على الساحل . ويقول الإدريسى بصدد ذلك أن جميع بلاد الزنج بضائعهم الحديد وجلود النمور الزنجيه وهى جلود حمر لينة جداً ينقلون أمتعتهم على رؤوسهم وعلى ظهورهم إلى مدينتى منبسة ومالينده فيبيعون هناك ويشترون ، وليس للزنج مراكب يسافرون فيها وإنما تدخل إليها المراكب من عمان وغيرها إلى جزائر الزنج فيبيعون بها هناك ويشترون متاع الزنج ،وأهل جزاير الرانج (الهند) يسافرون إلى الزنج في زوارق ومراكب صغيرة فيجلبون منها أمتعتها لأنهم يفهم بعضهم كلام بعض[١] .

إن المعلومات التى أوردها الإدريسى غير وافيه فضلاً عن أنه أخطأ عند ذكره مدينة براوة فذكر أنها لاتزال على وثنيتها إذ قال أنها واقعة بطرف بلاد الكفرة والمعروف أن براوة قد انتقل إليها الإسلام في زمن أسبق من كتابات الإدريسى وناحية أخرى أنه لم يشر إلى كلوة إلا إشارة عابرة مع أنها تأسست قبل مائتى سنة من الإدريسى وبلغت في زمنه إلى أقصى درجة من ازدهارها وكانت جزر بمبا ومافيا وزنجبار تابعة لها ، وهذه الجزر أيضاً لم يذكرها الأدريسى كما أنه لم يعرض لمدينة مقديشو في حين أنه ذكر بعض المدن التى كانت تابعة لها كبراوه ومركة . ومن هنا يتبين لنا أن الأدريسى كان على عدم

---

(١) دافيدسون ــ افريقية تحت أضواء جديدة (مترجم) ص ١٢ ــ ١٣

دراية بتلك الأماكن ويبدو أنه كما سبق أن أشرنا لم يهتم بالاستعلام عنها اهتماماً كافياً ومع ذلك فإن الإدريسى يكاد يكون هو الجغرافي الوحيد الذى ذكر أسماء مدن وجزر شرق إفريقيا في حين لم يذكرها غيره إلا باعتبار أنها مجموعة جزر[١] .

وفي أوائل القرن الثالث عشر الميلادى صنف ياقوت الحموى كتابه المعروف معجم البلدان . وكان ياقوت رحالة وتاجراً ويعتبر هذا المصنف من أهم ما صنفه العرب في هذا الموضوع ويوجد بهذا المعجم بعض أسماء مدن شرق إفريقيا كمقديشو وجب وكلوة ولعل ياقوت أول من أشار إلى الشعب السواحلى ويفهم ذلك من حديثه عنهم إذ أسما هم البربر « وهم غير البربر الذين بالمغرب هؤلاء سود يشبهون الزنوج ، جنس متوسط بين الحبش والزنوج »، وأشار ياقوت إلى مقديشو فذكر عنها أنها « مدينة في أول بلاد الزنج وأهلها كلهم غرباء ليسوا بسودان ولا ملك لهم وإنما يدير أمورهم المتقدمون على اصطلاح لهم وإذا قصدهم التاجر له أن ينزل على واحد منهم ويؤجير به فيقوم بأمره ومنها يجلب الصندل والأبنوس والعاج . . . هذا أكثر أمتعتهم وقد يكون عندهم غير ذلك مجلوب إليهم » . كما تحدث ياقوت عن كل من مدينة الجب وكلوة وسفالية ، ولكن كل ما أورده عنها لم يكن إلا شذرات فقد ذكر عن الجب أنها مدينة قرب بلاد الزنج في أرض بربرة يجلب منها الزرافة وجلودها يتخذها أهل فارس نعالاً ، ولم يذكر عن كلوة إلا أنها موضع بأرض الزنج ، ولم يذكر عن الجهات الأخرى التى تقع على ساحل شرق إفريقيا أكثر مما أورده الإدريسى عنها . ومع ذلك فإن ما ذكره ياقوت مهم رغم قلته ؛ ويبدو أن هذه المعلومات قد استقاها من التجار العرب الذين كانوا يذهبون إلى هذه الأقاليم لصلتهم بهؤلاء التجار وبرؤساء عمان بوجه خاص ، كما أشار ياقوت إلى جزيرة مدغشقر وأطلق عليها جزيرة القمر[٢]

---

١ Freeman — grenville, op. cit., p. 41.

(٢) لا يتفق الجغرافيون العرب على كتابة اسم هذه الجزيرة ولا على أصل اشتقاقها فقد كتبه البعض ومنهم الادريسى القمر بضم القاف والميم =

وتحدث عن اختلاف أجناسها وتعدد لغاتها وعن غنى سواحلها بالعنبر وأنه ليس هناك في بحر الزنج جزيرة أكبر منها[١] . وقد يكون من المناسب أن نشير هنا أن جزيرة مدغشقر وجزر القمر الأربعة كانت نادراً ما تذكر في المصنفات العربية ، وحتى المصادر المحلية التي تناولت تاريخ مدغشقر غير وافية وقد أورد لنا جيان بعض تواريخ عن مدغشقر وجزر القمر نقلا عن كتاب عربي مخطوط ذكر أنه عثر عليه في مايوت إحدى جزر القمر وكذلك تحدث فراند[٢] عن عدة مخطوطات عربية قديمة ذكر أنه عثر عليها في مدغشقر وأهداها إلى المكتبة الأهلية بباريس Bibliotheque Nationale ؛ وفراند من أهم المختصين بالدراسات العربية الأفريقية والآسيوية وقد أمضى حياته في الخدمة الدبلوماسية بالمستعمرات العربية بالمحيط الهندى من مدغشقر إلى الهند الصينية وقد وضع مؤلفاً ضخماً جمع فيه المادة العربية والفارسية والتركية المتعلقة بالجغرافية التاريخية للهند والشرق الأقصى بعنوان قصص الرحلات والجغرافية العربية والفارسية والتركية المتعلقة بالشرق الأقصى من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر ترجمها وألف بينها وعلق عليها[٣] ويستدل من هذه المخطوطات على أن العرب اختلطوا بإحدى القبائل في مدغشقر وتكون منهم شعب الأنتيمرونا الذى يخضع من الوجهة الدينية والتنظيمية إلى قبيلة الانكارا وقد عرفت قبيلة الأنتيمرونا الكتابة العربية بعد الإسلام بينما بقى شعب الهوفا أكبر شعوب مدغشقر لايعرف الكتابة إلى فترة متأخرة وذكر فراند أن الأنتيمرونا يحتفظون بكتب خطية عربية متناهية القدم يزعمون فيها انتسابهم

= وكتبه غيرهم ومنهم ياقوت وابن سعيد بسكون الميم ونسبوا اسم الجزيرة الى قوم القمر الذين هاجروا اليها أما ابن الوردى والبقوى فسموا الجزيرة باسم القمر بفتح القاف والميم . ويبدو أن العرب كانوا يقصدون بها جزيرة مدغشقر وان كان هناك من يعتقد أنهم كانوا يعنون بها احدى جزر القمر خاصة وأن وصف كل من الادريسى وابن سعيد لجزائر القمر من حيث طبيعة الأرض وعادات السكان لا يتيسر تطبيقه على جزيرة مدغشقر .
انظر جيان — وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقيا ص ١٦١ — ١٦٢

(١) راجع ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، فى التعرف على الأماكن التى اشرنا اليها .

(٢) Gabriel Ferrand, Les Musulumanes de Madagascar et l'iles de Commores 2 Tomes, Tome I

(٣) Cf. Ferrand, Relation de Voyages et Texetes Geographiques Arabes, Persans et Turk relatif a l'Extreme Orient.

إلى مكة ولكن يجب أن تأخذ هذه الروايات بحذر فإن دعوى الانتساب إلى مكه والبيت النبوى تكاد تكون ظاهرة متفشية في تلك المناطق . وقد أسلمت قبيلة أنتيمرونا في زمن لانستطيع أن نحدده تحديداً صحيحاً وإن كان إسلام تلك القبيلة إسلاماً ضعيفاً إذ لم تلبث أن عادت إلى عقائدها من جديد فاختلط الإسلام بالوثنية . وربما يمكن أن نستفيد بالتاريخ الذى أورده المسعودى في تحديده فتح المسلمين لجزيرة قنبلو في عام ٧٥٠ م إذ ليس من المستبعد أن يكون الإسلام قد انتقل إلى مدغشقر بعد ذلك التاريخ مباشرة .

وقد ذكر فراند استناداً على المخطوطات التى عثر عليها أن الصراع كان حادثاً بين الكهنة الذين يعبدون إلها واحداً والعامة الذين تتعدد آلهتهم وكان مجيء العرب بالتوحيد معناه انتصار لحزب الكهنة ، ولكن كما سبق أن ذكرنا أن الإسلام في مدغشقر لم يكن قوياً ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى شدة احتفاظ أهالى مدغشقر بتقاليدهم ومعتقداتهم ويلاحظ أن المبشرين الأوربيين اصطدموا هم أيضاً بهذه التقاليد[١] .

وجاء من بعد ياقوت الحموى ابن سعيد[٢] ١٢١٤–١٢٨٦م وهو مؤلف جغرافي من غرناطة درس جغرافية بطلميوس وصنف كتابه حول منتصف القرن الثالث عشر حيث وضع موسوعته التى أسماها جغرافية الأقاليم السبعة أورد فيها سواحل شرق إفريقيا مع ذكر لبعض مدنها كما لينده ومنبسه وركز على مقديشيو بصفة خاصة ، وقد تحدث عن هذه المدن مراعياً ترتيبها بحسب موقعها من الشمال إلى الجنوب[٣] . وقد وضع كتابه هذا على نهج الإدريسى في كتابه نزهة المشتاق . وأهم مافي كتاب ابن سعيد ما ذكره من أن ملاحاً عربياً يدعى ابن فاطمة دار حول إفريقيا من الغرب إلى الشرق ووصف سواحل السنغال والقمر وذكر عن وجود جاليات هندية تعيش في جزيرة القمر

---

(١) ارجع الى لوثروب ستودارد ـ حاضر العالم الاسلامى وتعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتابات جبرييل فراند جـ ١ ص ٣٦٩ وما بعدها .

(٢) انظر ابن سعيد فى المجلد الثانى من فراند ص ٣١٦ وما بعدها .

(٣) جيان ـ وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقية ص ١٣٨

وأورد ابن سعيد تفاصيل عن هذه الجزيرة تطابق جزيرة مدغشقر مثل كونها عريضة طويلة طولها مسيرة أربعة أشهر وعرضها مسيرة عشرين يوماً وأنها تحت حكم المسلمين[١]، وعلى الرغم من أن الفاصل الزمنى بين كتابات الإدريسى وابن سعيد لا يتجاوز مائة عام فإن التناقض واضح بينهما إذ نلاحظ بعض تغييرات من حيث أسماء المدن ولا نستطيع أن ننسب هذا الخلاف إلى التغيير الذى حدث للساحل في مدة قصيرة كهذه ومع ذلك ففى كتابات ابن سعيد مواقع كثيرة ورد ذكرها في الأدريسى .

وبعد وفاة ابن سعيد يظهر أمامنا مصنف جديد في تخطيط البلدان لزكريا بن محمد المعروف بالقزوينى ويتضمن هذا المصنف بعض البيانات عن الشاطىء الشرقي لأفريقيا غير أنه يتميز باتجاهه إلى العجائب ويتضح من اسمه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ١٣٢٥ . كما له كتاباً آخر بعنوان آثار البلاد وأخبار العباد ، وقد اقتصر فيه على ما نقله من المسعودى بالنسبة لحديثه عن زنوج شرق إفريقية[٢] .

ثم يظهر لنا بعد ذلك كتاب « تقويم البلدان » لأبي الفدا إسماعيل سلطان حماة الذى يعد من أبرز المصنفين العرب في القرن الرابع عشر[٣] ، ولكنه اقتصر فيما أورده لنا من معلومات على النقل عن ابن سعيد وأوضح ما ذكره أبو الفدا حديثه عن الثلوج على قمة كلمنجارو وقال إنه سمع بهذا ولا يكاد يصدقه ، وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن العرب عرفوا مناطق في أفريقيا لم يصل إليها الأوربيون إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولم يقتصر أبو الفدا في حديثه عن زنوج شرق إفريقيا بل ذكر أخباراً عن الزنوج الذين كانوا في البلاد العربية فقد ذكر أنه في عام ٢٥٦ هـ أغارت عصابة من زنوج زنجبار على الجزء الجنوبي من العراق وأنهم استولوا على مدينة البصرة ونهبوها كما أكد

---

(١) لوثروب ستودارد — حاضر العالم الاسلامى — تعليق شكيب أرسلان ص ٣٧١ — ٣٧٢

(٢) زكريا القزوينى — آثار البلاد وأخبار العباد بيروت ١٩٦٠.

(٣) انظر مادة أبو الفدا فى دائرة المعارف الاسلامية .

النويرى أن جزءاً من جيش الخلفاء العباسيين ببغداد كان مؤلفاً في القرن التاسع من الميلاد من زنوج زنجبار[١] .

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر انصرف العرب عن الجغرافية ووجهوا اهتمامهم إلى الحديث عن العجائب وفي وصف الغريب من حيوان البر والبحر وظواهره . ومن أهم الذين كتبوا عن العجائب شمس الدين أبو عبد الله الدمشقى في كتابه « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » وقد نقل الدمشقى بعض رواياته عن المسعودى ، وفي فصل له عن بحر الزنج ذكر الدمشقى جزائر عديدة منها جزيرة قنبلو ولكنه عنى بها جزيرة مدغشقر[٢] ، ثم يأتي بعد الدمشقى عبد الرشيد بن صالح الملقب بالبقوى نسبة إلى باكو من ثغور بحر قزوين وله كتاب عجائب القدرة تحدث فيه فيما ذكره عن شرق إفريقيا عن جزيرة زنجبار ولكنه أسماها بنجويه ، ذكر عنها أنها جزيرة كبيرة من بلاد الزنج وجميع السفن التى تتاجر مع هذه البلاد ترسو إليها وبذلك يمكن أن نعتبر جزيرة زنجبار من عداد الأمكنة التى ذكرها المصنفون العرب في مصنفاتهم الجغرافية .

وفي منتصف القرن الثاني عشر يبرز أمامنا سراج الدين أبي حفص عمر ابن الوردى في كتاب له بعنوان « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » وقد نقل هو الآخر عن المسعودى وذكر ابن الوردى أنه كلف من نائب السلطنة قائد قلعة حلب شاهين المؤيد[٣] أن يضع له دائرة مشتملة على دائرة الأرض توضح ما اشتملت عليه فوضع هذا الكتاب[٤] . وقد وصف ابن الوردى ساحل شرق إفريقيا من جردفون إلى موزنبيق وذكر أن سكانه جميعهم من المسلمين فيهم القاضى والإمام ونقل ما أورده المسعودى

---

(١) انظر ما كتبه ابو الفدا عن تاريخ البصرة فى :
Reinand, op. cit., Tome II pp. 44.
وكذلك جيان ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقية ص ٧٣

(٢) لوثروب ستودارد ـ حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣

(٣) كراتشكوفسكى ـ المصدر السابق القسم الثانى ص ٥٠٠

(٤) راجع ابن الوردى ـ فريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ٤٨ و ٨٠

عن بلاد واق الواق وعجب لكثرة ما بها من ذهب حتى أن الزنوج يتخذون سلاسل كلابهم ودوابهم منه ، وأما أكابرهم فيصنعون لبنا من الذهب يبنون بها بيوتهم . وفي الواقع أنه يوجد اختلاط عن سمى آخر لابن الوردى ظهر في منتصف القرن الرابع عشر ١٣٤٦ - ١٤٥٧ ويدعى زين الدين أبى حفص بن الوردى[١] وقد ظل كتاب الخريدة ينسب خطئاً إليه لما كان يشتهر به في الأدب والفقه واللغة[٢] .

على أن أهم أثر في القرن الرابع عشر هو كتاب رحالة عربي يدعى ابن بطوطة سجل فيه رحلاته وأسماه « تحفه النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وقد بدأ ابن بطوطة رحلاته في عام ٧٢٥ هـ قاصداً الحج ويقال إن أوراقه التى سجل فيها رحلاته قد فقدت منه فأملاها من الذاكرة وقد صاغ رحلات ابن بطوطة محمد بن جزى الغرناطى بأمر من السلطان أبى عنان أحدملوك بنى مرين بالمغرب[٣] ، والظروف التى تم فيها تدوين رحلات ابن بطوطة تجعلنا إذا ما قسونا في حكمنا على ابن بطوطة من خيال أو عدم دقة فيما كان يرويه ، أن كثيراً من اللوم الموجه إليه يمكن أن يكون ناشئاً عن ابن جزى وأغلب الظن أن ابن بطوطة لم يدون مذكرات منتظمة وإن كان قد دوّن شيئاً فلا ريب في أنه قد أضاعه خلال تجواله[٤] . وابن بطوطة ارتحل إلى مناطق كثيرة في إفريقيا وتعنينا في هذا المجال رحلته إلى شرق إفريقيا والتى سافر فيها من زيلع إلى مقديشيو ، منبسة ، كلوة ، والثابت أنه قام بهذه الرحلة في عام ١٣٣١ ولعله يكون أول المصنفين العرب الذى يحدثنا بإفاضة عن الإمارات الإسلامية الهامة في شرق إفريقيا الشمالية منها والجنوبية ، وقد يكون هو الوحيد الذى يقدم لنا معلومات متصلة يمكن الاعتماد عليها عن تاريخ الساحل .

---

(١) راجع فراند Ferrand في نسبته الكتاب الى زين الدين بن الوردى وكراتشكوفسكى فى نسبته الكتاب الى سراج الدين بن الوردى .

(٢) Cf. Ferrand, op. cit., Tome II p. 408.

(٣) كراتشكوفسكى ــ المصدر السابق ــ القسم الأول ص ٤٢٦ ــ ٤٢٧

(٤) راجع مادة ابن بطوطة ــ دائرة المعارف الاسلامية .

ورحلات ابن بطوطة على الرغم من عدم دقتها إلا أنه لاغنى عنها بالنظر لاحتوائها على بيانات وافية منها ما يمكن الاعتماد عليه . وقد أورد ابن بطوطة بتفصيل ثلاث مراكز على الساحل الشرقي هي مقديشيو ، كلوة ، منبسة. ذكر عن مقديشيو أن المسافة بينها وبين زيلع خمسة عشر يوماً وهي مدينة متناهية في الكبر أفاض في الحديث عن نشاطها الاقتصادى ،وأكد اتصالها تجارياً بمصر إذ تصنع فيها الثياب الرفيعة المنسوبة إليها والتى لانظير لها ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها ، وذكر أن القاضى الذى استضافه في داره أثناء إقامته إسمه ابن البرهان ذكر عنه أنه مصرى الأصل ،ويظهر من روايات ابن بطوطة مدى تحضر مقديشيو وأن سلطانها يعرف اللغة العربية وإن كان يتكلم اللغة المقديشية ،ويبدو أن مقديشيو عندما زارها ابن بطوطة كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من التطور ،ويبدو من وصفه لها أنه كان لها أنظمة وتقاليد خاصة بها يظهر ذلك فيما أورده من التقاليد المتبعة في جلوس السلطان وما يحيط به من وزراء وأمراء ووجوه أجناد كل حسب مرتبته وأن الأطبال والأنفار والأبواق كانت تضرب عند جلوس السلطان ، ثم يتحدث ابن بطوطة عن جلوس الفقهاء وذوى الرأى وكيفية نظرهم في شكاوى الناس وتطبيقهم للشريعة الإسلامية ، ثم يمضى في وصف الحياة الاقتصادية ومدى ما وصلت إليه هذه السلطنة من اتساع في النفوذ ونمو في التجارة .

كما ذكر ابن بطوطة منبسة ولكن يبدو أن المدة التى قضاها بها وهى ليلة واحدة لم تكن كافية بطبيعة الحال للتعرف عليها أو الإطناب في وصفها فلم يذكر عنها إلا أنها شافعية المذهب مساجدها من الخشب أما عن كلوه — وذكرها ابن بطوطه بكلوة بضم الكاف ، في حين ذكرها ياقوت بكسر الكاف والأرجح أن تكون تسمية ياقوت هى الأرجح إذ سميت كذلك لأن الجزيرة تشبه كلوة الإنسان[1]، فقد وصفها ابن بطوطة بأنها مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها زنوج وهى من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها مبنية من الخشب

(١) Freeman — grenville, op. cit., p. 47.

وأهلها أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج ولكنه أشار إلى إسلام بعض الزنوج وأن هؤلاء يغلب عليهم الدين والصلاح وينتمون إلى المذهب الشافعي ، كما تحدث ابن بطوطة عن سلطان كلوة ويفهم من حديثه عنه أن السلطنة كانت متصلة ببعض البلدان الإسلامية كالعراق والحجاز ويظهر ذلك من حديثه عن السلطان أبو المظهر حسن وكان يكنى بأبي المواهب لكثرة مواهبه وكرمه وقد قال عنه أنه كان كثير الغزوات على أرض الزنوج الكفار يغير عليهم ويأخذ منهم الغنائم حيث يخرج خمسها ويصرفه في الأوجه المعينة في كتاب الله ويجعل نصيب ذوى القربي في خزانة على حده فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها .

وذكر ابن بطوطة عن امتداد نفوذ كلوة إلى منبسه إثر مصاهرة تمت بين البيتين الحاكمين في كل من كلوة ومنبسة ، وعلى الرغم من أن ابن بطوطة قد وصف لنا كلوة بطريقة لم يصفها أحد من قبله فإن ما يدعو للأسف أن ابن بطوطة لم يتوسع في الحديث عن علاقات سلطنة كلوه من الناحيتين السياسية والتجارية بغيرها من المناطق خاصة وأنها كانت في زمن ابن بطوطة أهم مركز إسلامي على الساحل الشرقي لأفريقيا ، وكانت حركة الاستيطان الإسلامي بالغة مبلغها الأقصى شدة واتساعاً . ولقد كان باستطاعة ابن بطوطة أن يوافينا ببيانات أكثر مما ذكره عنها ولكنه لم يذكر سوى القليل مع أنه أقام بالمدينة فترة كانت كافية للتعرف عليها[1] .

والجدير بالذكر أن الزمن الذى وصل فيه ابن بطوطة إلى ساحل شرق إفريقيا وهو نهاية الثلث الأول من القرن الرابع عشر كانت معظم مناطق الساحل تنتمى إلى العرب حين جاءت موجة كبيرة من مهاجرى العرب في القرن الثالث عشر الميلادى وقت اجتياح المغول دار الإسلام حتى الفرات ولحق هؤلاء ببنى جلدتهم على الساحل الشرقي لأفريقيا وجاءوا بدم جديد دافق ظهرت آثاره في عماراتهم الزاهرة وأسواقهم الفائقة التى بهرت ابن بطوطة

---

(١) راجع ابن بطوطة ــ تحفة النظار فى عجائب الأمصار ج ١ ذكر سلطان كلوة ومقديشيو .

حين جاء الإقليم . واستطاعت هذه المجتمعات بعد أن تنوعت مصادر الثروات فيها أن تصل إلى درجة تقرب من الخيال من حيث الغنى والترف والرفاهية. ويظهر ذلك في وصف ابن بطوطة لمدن الساحل الشرقي لأفريقيا وهذا الرحالة كان على معرفة وثيقة بمستوى الحياة العربية في البلاد الواقعة في حوض البحر المتوسط في هذا العصر فعجب للثراء الكبير والحياة المترفة التي رآها ، فحديثه عن مدينة كلوة يوحي بأنها من أجمل بقاع العالم وأكثرها بهاءاً وكذلك حديثه عن منبسه ومقديشيو يعطي فيه صوراً حية لمجتمعات مترفة غنية(١) .

وفي نهاية القرن الرابع عشر يبرز لدينا كتاب أبي المحاسن بعنوان المنهل الصافي والمستوفي بالوافي (١٣٨٣) وقد نقل عنه المقريزي ترجمة لأحد قضاة مدينة لامو التقى به في مكه (٨٣٩) ذكر عنها أنها بلدة من بلاد الزنج على مقربة من مقديشيو ، ويستنتج من قول المقريزي وأبي المحاسن أن مدينة لامو كانت موجودة سنة ١٣٨٣ ولابد أنها تكون قد تأسست في عهد أقدم من ذلك لأنه كان بها في سنة ١٣٨٣ سكان مسلمون وكان لهم قاضياً عالم بالشرع الإسلامي(٢) .

وبعد هذه الرواية التي ذكرناها عن المقريزي لاتوجد لدينا مصنفات عربية عامة تعرضت لشرق إفريقيا ، وبذلك نكون قد استخرجنا كل ماتحتويه المصنفات العربية من وصف ساحل شرق إفريقيا في الفترة من القرن التاسع إلى نهاية القرن الخامس عشر وهي الفترة التي يمكن أن نسميها بالعهد الإسلامي لأنها الفترة التي كان المسلمون في خلالها على اتصال دون غيرهم بتلك المناطق التي كان لهم فيها النفوذ التام والسيادة على أطرافها والسيطرة على تجارتها .

وبوصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر تبدأ المصادر البرتغالية تتوالى علينا كما بدأت المصادر الأوربية عموماً تعرض لشرق إفريقيا .

---

(١) جيان ـ وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية فى شرق افريقية ص ١٩٥

(٢) حسن أحمد محمود ـ انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا .

وقد عاصر مقدم البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا ربان عربي يدعى شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى أو النجدى عاش في النصف الثاني من القرن الخامس عشر والسنوات الأولى من القرن السادس عشر وخلف تراثاً في فنون البحار والملاحة الفلكية يشتمل على ما يقرب من تسعة عشر مؤلفاً ضمنت في مخطوط كبير باللغة العربية أزيل ما علق به من تراب في أوائل القرن الحالى . والفضل في ذلك إلى المستشرق الفرنسى جبرييل فراند الذى اكتشف هذا المخطوط في مكتبة المخطوطات بالمكتبة الأهلية في باريس ، وكانت المكتبة قد حصلت على هذا المخطوط من أستاذ جزائرى يدعى سليمان تولى التدريس في مدرسة اللغات الشرقية بباريس في عام ١٨٦٠ ، وظل المخطوط يكاد يكون مهملاً في أرشيف المكتبة تحت رقم ٢٢٩٢ باستثناء بعض الإشارات السريعة العابرة عنه إلى أن قام المستشرق فراند بالتحقق من قيمته العلمية ونشره بين عامى ١٩٢١ و١٩٢٣ بعد أن عكف على دراسته ما يقرب من عشرة أعوام أو يزيد[١] .

وتنحصر أهمية هذا المخطوط في أنه أقدم وثيقة عربية دونت عن الملاحة وفنون البحار في البحار الجنوبية بين الساحل الشرقي لأفريقيا في المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربي وبحر الصين الغربي وأرخبيل الملايو وبلاد الصين ، وفي عام ١٩١٩ عثر في دمشق على نسخة أخرى من هذا المخطوط وقد نسخت بمكة في ١٥٩٢ تولى فران مطابقتها على النسخة الباريسية ، وأخيراً عثر المستشرق الروسى كراتشكوفسكى بالمتحف الآسيوى على ثلاثة أراجيز تتعلق أولاها بالإبحار عن طريق البحر الأحمر والثانية بالإبحار عن طريق المحيط الهندى والثالثة وصف الطريق من المحيط الهندى إلى إفريقيا الشرقية[٢] . وقد نشرت هذه الأراجيز في عام ١٩٥٧ ، قام بنشرها معهد الإستشراق

---

(١) أنور عبد العليم ــ أحمد بن ماجد ص ٦ انظر أيضا مادة شهاب الدين أحمد بن ماجد فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) لقيت مؤلفات أحمد بن ماجد عناية خاصة من المستشرق المعروف سيلفستردى ساسى Silvstre de Sacy فى عام ١٨٩٥
وتوجد نسخة زنكوغرافية فى دار الكتب المصرية نقلا عن المكتبة الأهلية بباريس لكل من مؤلفات أحمد بن ماجد وسليمان المهرى .

السوفيتى بمدينة لينجراد بعد أن عكف فيودور شوموفسكى — أحد تلامذة كراتشكوفسكى — على دراستها والتعليق عليها وقد نشرها باسم ثلاث راهمانجات المجهولة[١] ، كما عثر على مخطوطة لأحمد بن ماجد بالموصل لا تزال تحتاج إلى تحقيق[٢] . وعلى الرغم مما يكاد يتفق عليه على أن أحمد بن ماجد هو الذى أرشد فاسكودى غاما في رحلته إلى الهند إلا أن المطلع على مؤلفات أحمد بن ماجد لا يجد بها أية إشارة عن ذلك ، وإذا كان ابن ماجد قد وضع بعض هذه المؤلفات قبل مقدم البرتغاليين فإن هناك مؤلفات أخرى كتبها بعد وصول البرتغاليين وبالتحديد بين عامى ١٥١١ و ١٥١٢ لم يتعرض فيها إلى ذلك الحادث .

أما المصادر البرتغالية المعاصرة والتى كتبها كل من كويز وباروس وكاستهنيدا فعلى الرغم من أنها أشارت إلى أن ملاحاً عربياً قاد سفينة فاسكودى غاما إلى الهند إلا أنها لا تذكر الإسم صراحة وإنما تردد أسماء غير واضحة لهذا الملاح مثل معليمو كاناكا أو كانا أو عربى من الكجرات صحب فاسكودى غاما في عام ١٤٩٨ في رحلته من مالندى إلى كاليقوط[٣] .

وقد أثبت فيران أن اسم معليمو ليس إلا تحريفاً سواحلياً للكلمة العربية معلم . وكذلك برجوعنا إلى مؤلفات سليمان المهرى وهو ملاح عربي عاش بعد ابن ماجد بسبعين سنة لا نجد في كتاباته أية إشارة إلى هذا الحادث .

أما الذى أكد على حادثة إرشاد أحمد بن ماجد للبرتغاليين فهو جبرييل فراند حينما وقع على مخطوط باللغة العربية لقطب الدين النهرواني يرجع تاريخه إلى عام ١٥٧٧ بعنوان البرق اليماني في الفتح العثماني الذى ذكر تحت باب انتقال الدولة باليمن من بنى طاهر إلى الأمير حسين من الجراكسة أنه

---

(١) نشر هذا الكتاب فى عام ١٩٥٧ عن معهد الاستشراق السوفيتى بلينجراد وبه الثلاثة مرشدات البحرية نقلا عن أصولها المحفوظة فى مكتبة معهد الاستشراق . وقد نشرت هذه المرشدات بأصولها العربية وبترجمتها والتعليق عليها باللغة الروسية .

(٢) كراتشكوفسكى — القسم الثانى ص ٥٧٤

(٣) كراتشوفسكى — مع المخطوطات العربية ص ١٨٠ — ١٨٣

وقع في أول القرن العاشر الهجرى من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال اللعين من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند وأنهم كانوا يتعرضون لأخطار إلى أن دلهم أحمد بن ماجد إلى الطريق وقد عقد زعيم الفرنجة أواصر الصداقة بينه وبين هذا الملاح الذى كان يعب الخمر مع أمير البحر البرتغالى فلما لعبت الخمر برأس الملاح أرشد أمير البحر إلى الطريق قائلاً للبرتغاليين لا تقربوا الشاطىء عند هذا الجزء إلى الشاطىء الشرقي لإفريقية إلى الشمال من مالندى بل أديروا الدفة رأساً صوب البحر المفتوح فتبلغا شاطىء الهند وتكونوا في حمى من الأمواج ، فلما اتبعوا هذه الإرشادات نجا كثير من السفن البرتغالية من الغرق » .

وقد تكون أهمية كتابات قطب الدين أنه عاصر أحمد بن ماجد فضلاً عن أن بعض المصادر البرتغالية قد أشارت إلى إرشاد بعض الأدلاء لفاسكودى غاما إلى الطريق ، وقد حدث ذلك بتكليف من ملك ماليندە الذى حالف البرتغاليين عند وصولهم إلى ماليندە ضد منافسه شيخ منبسه ولكن المؤرخ البرتغالى باروس نسب قصة الإرشاد إلى ملاح مسلم من أهل كجرات ، أما الحكومة البرتغالية فإنها قد اعترفت أخيراً بفضل أحمد بن ماجد فأقامت له نصباً تذكارياً في مدينة ماليندە[1] .

ولكن التشكك في أن يكون أحمد بن ماجد هو الذى أرشد البرتغاليين إلى الهند يقوم على الإعتبارات الآتية :

(أولا) أن ابن ماجد لم يشر إلى ذلك بل أنه أبدى عداءً للبرتغاليين في أشعاره وأراجيزه .

(ثانياً) أن سليمان المهرى الذى ظهر بعد ابن ماجد لم يشر هو الآخر إلى هذه الحادثة ، أما سيدى على ريس في كتابه المحيط الذى كتبه باللغة التركية ورجع فيه إلى أسفار ابن ماجد وسليمان المهرى فقد ذكر أن الربابنة الأجانب كانوا لا يعرفون كيف يبحرون في المحيط الهندى دون الإستعانة بربان يرشدهم ولكنه لم يورد اسم هذا الربان . ويرى البعض أن ما ذكر عن ابن ماجد

---

(١) انور عبد العليم ــ أحمد بن ماجد ص ٦١

أنه كان في حالة سكر أمر لا يرقي إلى المنطق إذ كيف يترك له فاسكودى غاما قيادة سفينته وهو في هذه الحالة فضلاً عما تبين من كتاباته وأراجيزه شدة ورعه وحجه إلى مكة ، وربما تعنينا مؤلفات أحمد بن ماجد في تاريخ شرق إفريقيا في ناحيتين :

(أولاهما) ما جاء بها من إشارات عن وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا .

(والثانية) ذكره لبعض المناطق والمدن والجزر الموجودة على ساحل شرق إفريقيا .

ومن أهم مؤلفات أحمد بن ماجد كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، وحاوية الإختصار في أصول علم البحار ، وقد ذكر في الفائدة العاشرة من كتاب الفوائد وصفاً لبعض الجزر الكبيرة المشهورة يعنينا منها وصفه لجزيرة القمر والتى ذكر عنها أنه يحكم عليها سلاطين الإسلام وبها أربعين خطبة ويقصد بذلك أربعين مسجداً .

وإلى جانب هذه المؤلفات هنالك أراجيز لاتخرج في جملتها ، وكما سبق أن ذكرنا ، أن تكون مرشدات ملاحية لبيان طرق الملاحة . ويهمنا من هذه الأراجيز الأرجوزة السفالية نسبة إلى سفالية في جنوب شرق إفريقيا وهى قصيدة طويلة تقع في أكثر من سبعمائة بيت ، وأهمية هذه الأرجوزة أنها تكاد تكون الأرجوزة الوحيدة التى يرد فيها ذكر البرتغاليين فبالإضافة إلى ما جاء بها من وصف للمجارى والقياسات من مليبار والسند إلى نواحى السواحل والزنج وأرض السفال وجزره ، نجد فيها بيانات عن وصول البرتغاليين إلى جزيرة مدغشقر بقوله :

وخشب الإفرنج قد جاءوها وملكوها بعد أن غازوها

ويعاصر الغزو البرتغالى لشرق إفريقيا مخطوطة عربية قديمة كتبت في ذلك الوقت ولكنها فقدت ولم تصل إلينا إلا مقتطفات منها كتبت في عام ١٨٧٧ وقدمها السيد برغش بن سعيد هدية إلى السير جون كيرك القنصل البريطاني في زنجبار وهذه المخطوطة تشتمل على ١٧ ورقة فقط مكتوبة بخط منسق

واضح وإن كان بها الكثير من الأخطاء اللغوية ، وقد أهدى كيرك بدوره هذه المخطوطة التى اعتبرت فريدة في نوعها إلى المتحف البريطاني حيث حملت رقم ٢٦٦٦ وتشتمل على حوادث من وصول فرس شيراز إلى ساحل شرق إفريقيا في القرن العاشر إلى الغزو البرتغالى لكلوة في أوائل القرن السادس عشر . وقد نسخت هذه المخطوطة نقلاً عن أوراق الشيخ محيي الدين الزنجبارى قاضى زنجبار ١٨٦٢ وربما يكون هو نفس القاضى الذى تقابل معه الرحالة بيرتون Burton والذى حدثنا عنه في كتابه عن زنجبار ، وقد ذكر كيرك في تدوينه معلومات عن هذه المخطوطة أنها مأخوذة من سنة الكلاوية أما المخطوطة نفسها فتحمل اسم السلوة في أخبار كلوة التى إذا صح ما ذكره كيرك ليست إلا جزءًا من سنة الكلاوية .

وعلى هذا الأساس فإن محيي الدين الزنجبارى لا يكون مؤلف المخطوطة وإنما مجمعها خاصة وأن المخطوطة كما ذكرنا مليئة بأخطاء لغوية لا تطابق ما ذهب إليه بيرتون من فصاحة الشيخ محيي الدين وبلاغته في اللغة العربية إذا كان محيي الدين هو واضع هذه المخطوطة فعلاً . وكتاب السلوة على ذلك ليس إلا تجميعاً حديثاً على حد ما ذكره السير أرثر سترونج Strong عند نشره لكتاب السلوة وتقديمه له نقلاً عن الملاحظات التى أبداها جون كيرك .

وإذا كنا لم نعثر على السجل القديم لسنة الكلاوية فإن جرنفيل فريمان Freeman ، وهو أحد المعنيين بدراسة تاريخ شرق إفريقيا الوسيط ، لا يزال يراوده الأمل في العثور على ذلك الكتاب ويؤكد أنه عند زيارته لساحل تنجانيقا أن هنالك كثير من المخطوطات العربية والسواحلية توجد في أيدى عرب زنجبار وبمبا وقد قام المكتب الثقافي بشرق إفريقيا في عام ١٩٥٥ بتنظيم معرض للكتب الخطية ، وبالإضافة إلى ما عرض في هذا المعرض من عدد كبير من النسخ الخطية النادرة للقرآن فقد عرضت أيضاً الكثير من المخطوطات الخاصة بشرق إفريقيا ولكن لم تتوافر الظروف لتصوير هذه المخطوطات أو حتى تصنيفها(٢) .

---

(١) Cf. Richard Burton, Zanzibar, City, Island and Coast 2 vols. London.

(٢) Freeman — grenville, The Mediveal History of Tanganiyka Coast p. 47.

وقد أكد Ingrams هو الآخر في كتابه عن زنجبار وجود كثير من المخطوطات في حوزة الأهالى ولكنهم يحجمون عن تقديمها للباحثين ومن المؤكد أن تكشف هذه المخطوطات جوانب غامضة من تاريخ شرق إفريقية عند تسليط أضواء البحث عليها(١) .

وعلى الرغم من أننا لا نعرف اسم مؤلف كتاب سنة الكلاوية فقد وردت في الجزء المأخوذ عن هذا الكتاب بعض إشارات عنه والتاريخ الذى وضعه فيه ، ففى الفصل الرابع من السلوة نجد مايشير إلى أن المؤلف ولد في ٢ شوال سنة ٩٠٤ هـ أى في ١٣ مايو سنة ١٤٩٩ وأنه عاصر عهد السلطان فاضل والأمير إبراهيم ، ولكن الشيخ محيي الدين الزنجبارى قد أهمل عند نسخه الكتاب إسم المؤلف ولا ندرى إذا كان ذلك عن إغفال منه أو عدم معرفته إسم المؤلف .

وطبقاً للتاريخ الذى ذكر في كتاب السلوة يكون المؤرخ قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره عند حصار البرتغاليين لقلعة كلوة في عام ١٥١٢ ومن المعتقد أن يكون مؤلف سنة الكلاوية من الأسرة الحاكمة في كلوة فقد تحدث عن بعثة شكلت لمفاوضة البرتغاليين ضمنها إثنين من أقاربه .

وكتاب السلوة يتألف من مقدمة وعشرة فصول وقد نشر السير أرثر سترونج هذا الكتاب في عام ١٨٩٥ بعنوان تاريخ كلوة :

History of Kilwa (٢)

بترجمته الإنجليزية وبأصله العربى الذى نسخه الشيخ عبد الله بن مصبح ، أحد العاملين في بلاط السيد برغش ، وقد ذكر في مقدمته للكتاب أنه وقعت يده على أوراق الشيخ محيي الدين الزنجبارى ووجد ضمنها هذا التاريخ فحرص قبل أن يعيدها للسلطان أن يكتب لنفسه نسخة من هذا التاريخ(٣) .

ومقدمة كتاب السلوة مقدمة فلسفية تتناول تعطش الإنسان إلى المعرفة وأسباب ذلك ، وإن الله يميز بين العلماء والجهلاء ، وذكر أنه سيعرض في الفصل الأول لتأسيس مدينة كلوة وعن أول من وفد إليها .

---

(١) Cf. Ingrams, Arabia & The Isles.

(٢) Cf. History of Kilwa, Journal of the Royal Asiatic Society, April 1895.

(٣) Zôe March, East Africa Through Contemporary Records p. 214.

والفصل الثاني سيتعرض فيه عن اضطرابات الأمور في كلوة وحكومة إحدى القبائل التى اجتاحت كلوة ، والفصل الثالث عهد أبو المواهب (وهو السلطان الذى زاره ابن بطوطة)، والفصل الرابع عن الملك العادل ، والفصل الخامس عودة أسرة أبي المواهب ، والفصل السادس حكم الحسن بن وزير ، والسابع عهد السلطان فاضل بن سلطان ، والثامن عهد حاج محمد بن ركن الدين، والتاسع عهد السلطان محمد مكدات ، والعاشر عهد الملك سلطان بن سلطان .

وبتتبعنا لكتاب السلوة لانجد سوى المقدمة وسبعةفصول فقط ،بينما سقطت الفصول الثلاثة ، الثامن والتاسع والعاشر ، والمخطوطة على هذا الأساس تتناول عهد إمبراطورية الزنج في الفترة من وصول على بن الحسن الشيرازى إلى كلوة سنة ٩٧٥ إلى سقوطها سنة ١٥١٢ وقد يكون من المناسب أن نشير هنا إلى أن امبراطورية الزنج التى نعنيها في هذا المجال هى غير مملكة الزنج الداخلية القديمة التى تحدث عنها المسعودى في القرن العاشر الميلادى وإنما نقصد بامبراطورية الزنج الساحلية التى كان مركزها كلوة التى احتلت مكاناً بارزاً بين إمارات الساحل الشرقي لأفريقيا فيما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر الميلادى .

وإذا كانت الفصول السابقة تتناول هذه الفترة فإن الفصول الثلاثة التى لم تذكر في المخطوطة يبدو أنها كانت تتناول تاريخ كلوة بعد سيطرة البرتغاليين في أوائل القرن السادس عشر والسنوات التالية . ومن المؤكد أن يكون مؤلف الكتاب قد تعمد إسقاط هذه الفصول فإن آخر عبارة وردت في الفصل السابع « ولم أجد بعد ذلك شيئاً» ،وقدذكرت هذه العبارة بعدحديث المؤلف عن البعثة التى ذهبت لمفاوضة فاسكو دى غاما في ٨ جمادى الأول سنة ١٤٩٤ ، ثم يذكر الناسخ أن هذه المخطوطة نسخت في ٢٠ مايو سنة ١٨٧٧ في عهد السيد برغش بن سعيد وكتبت بيد عبد الله بن مصبح الصوافي .

أما عن إسقاط مؤلف المخطوطة للفصول الثلاثة المذكورة فيرجع إلى سبب واضح إذ من المحتمل أن يكون المؤلف قد اقتصر في تأريخة لكلوة إلى السنوات الأولى من القرن السادس عشر لأن ماحدث بعد ذلك كان فيه الكثير

من الامتهان بالنسبة لكلوة بعد إحكام السيطرة البرتغالية على ساحل شرق إفريقيا .

والمهم أنه لايزال لدينا أمل في العثور على سجل كلوة القديم وكذلك المخطوطة التى نقلها الشيخ محيي الدين الزنجبارى وبذلك يمكن إضافتهما إلى المخطوطة الثالثة وهى الوحيدة التى لدينا والمنسوبة إلى الشيخ عبد الله بن مصبح الصوافي .

وقد يكون من الجائز وقوع سجل كلوة في أيدى البرتغاليين خاصة وأن المؤرخ البرتغالى جواس دى باروس Jôas de Barros قد عثر على مجموعة ضخمة من المخطوطات نشر منها تاريخاً لكلوة بعنوان :

Choronica dos Reys de Quiloa

ولكن باروس لم يذكر لنا المصدر الذى أخذ منه الترجمة البرتغالية وقد كان من السهل علينا أن نقول إن باروس نقل عن سنة الكلاوية لولا بعض التناقضات الواضحة بين ما أورده باروس وبين النسخة التى سبق أن أشرنا إليها من تاريخ كلوة ، هذا مع التسليم بوجود تشابهاً في أوجه كثيرة بين النسخة البرتغالية وبين النسخة العربية .

وقد عنى كل من جرنفيل فريمان وبرنز بمطابقة الساوة في أخبار كلوة على تاريخ كلوة الذى نشره باروس[1] ويميل فريمان إلى الاعتقاد أن أصل المصدرين واحد إلا أن باروس أضاف معلومات من مصادر أخرى وكذلك أغفل أشياء اعتبرها غير هامة . ومما يعزز وجاهة رأى فريمان في أن مصدر النسختين مصدر واحد هو انتهاء باروس في تاريخه لكلوة في عام ١٥١٢ وهى نفس السنة التى انتهى فيها كتاب السلوة في أخبار كلوة .

ويُرجع النص العربي لتاريخ كلوة ،ويخالطه بعض الأساطير ، تأسيس مدينة كلوة إلى هجرة سلطان شيراز مع أبنائه الستة إلى ساحل شرق إفريقيا

---

(١) انظر ذلك فى كتاب جرنفيل فريمان التاريخ الوسيط لساحل تنجانيقا ص ٦٦ وما بعدها .

See also Prins A. H. The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and the East African Coast — Arab — Shiraz and Swahili, International African Institute, London 1961.

واستقرار السلطان بعد وصوله في كلوة وقد هاجر من شيراز إثر رؤية مخيفة توقع بها انهيار مملكته فهاجر بأبنائه ووزرائه ، على أن المخطوطة تؤكد أنه كان بكلوة جماعة من المسلمين ، بل كان هنالك مسجد أيضاً ، مما يدل على أن المسلمين قد وصلوا إلى كلوة قبل القرن العاشر الميلادى وفي فترة زمنية أسبق من الفترة التى وصل فيها الفرس الشيرازيون .

ويروى صاحب تاريخ كلوة أن السلطان حسن اشترى كلوة من صاحبها الأفريقى بأقمشة كانت معه ، بينما استقر كل ابن من أبنائه الستة في منطقة من المناطق على الساحل ، ولما كان الحسن بن على يخشى أن يعود صاحبها من جديد فقد صرف جهده لتحصينها ، ويروى صاحب كتاب الساوة أن هـذه الحادثة وقعت في منتصف القرن الثالث الهجرى (٩٧٥ م) ولا شك أن تحديد تأسيس الفرس لمدينة كلوة بهذا السبب الواهى لا يرقي إلى المنطق فالأرجح أن تكون هجرة الفرس إلى شرق إفريقية قد حدثت بين عامى ١٠٥٥ و١١٠٠ على إثر فرار الشيعة الشيرازيين من وجه طغرل بك السلجوقي الذى غزا شيراز سنة ١٠٥٥ وهذا الرأى الذى ننقله هنا عن Hichens قد يكون أدعى إلى الإقناع مع الاعتراف بوجود فاصل زمنى بين ماذكره صاحب تاريخ كلوة وبين هذه الهجرة المشار إليها .

أما الفصول الممتدة من الفصل الثاني إلى الفصل السابع فتتناول تاريخ من تعاقب على سلطنة كلوه من ملوك وسلاطين ، والمنازعات حول العرش وعن حج معظم حكامها إلى مكه .

ولكن يهمنا الفصل السابع بصفة خاصة لأن هذا الفصل يعرض في نهايته لأخبار وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا فيقول إنه جاءت الأخبار بأن رجالاً أتوا من بلاد الفرنج بصحبة ثلاث سفن وأن اسم قائدهم ميراتي (ولعله يقصد فاسكودى غاما) فتقدموا إلى مافيا فوجدوا ترحيباً من الأهالى ولكن لم يلبث أن عرف الأهالى أنهم أتوا للتجسس على المدينة بهدف الاستيلاء عليها فثاروا عليهم فتقدموا إلى ماليندى ومنها أخذوا مؤناً ومياهاً وطلبوا مرشداً إلى الهند، وفي عام ٩٠٦ قدم بيساريوس (ولعله يقصد القائد البرتغالى

بدرو الفاريز كبرال) وطلب من أهالى كلوة ماءً ووقوداً، وطلب أيضاً مقابلة السلطان أو ابنه فأوفد السلطان وفداً لمفاوضتهم «وقد رفض الوفد اعطائهم ماطلبوا فذهبوا لعنة الله عليهم إلى ماليندە وأخذوا كل ماكانوا يحتاجونه ، ولكنهم عادوا إلى كلوة ولما أدرك أهل كلوة أنهم لايستطيعون لهم دفعاً تقدم وفد لاستقبال الميراتي وكان قد عاد من الهند وكان في هذا الوفد بعضاً من أقاربي » .

ثم يقول صاحب التاريخ أنه « لم يجد بعد ذلك شيئاً » ويبدو أنه قد وقف عند مقدم البرتغاليين ،ويتضح ذلك من تسميته الكتاب «السلوة» أى أنه كتب تاريخاً للعزاء في تاريخ كلوة ولم يشأ بطبيعة الحال أن يكتب عما صارت إليه كلوة بعد السيطرة البرتغالية . وعلى الرغم من أن كتاب السلوة ليس النسخة الأصلية من تاريخ كلوة إلا أنه يعطينا تاريخاً متصلاً لسلطنة كلوة من القرن العاشر إلى أوائل القرن السادس عشر .

وكما سبق أن أشرنا في مقدمة هذه الدراسة أن الفترة التالية من وصول البرتغاليين تميزت بدخول إفريقيا إلى مجال الاحتكاكات بينها وبين أوربا ، فقد ظهرت الكثير من الكتب البرتغالية والأوربية بصفة عامة منذ نهاية القرن الخامس عشر . أما المصنفات العربية العامة التى أشارت لتاريخ شرق إفريقيا في عهد السيطرة البرتغالية فلا نجد منها سوى كتاب الشيخ تقى الدين الملبارى بعنوان « تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين » وهذا الكتاب نشره دافيد لوبز David Lopes بعنوان :

Historia Portuguesa No Malabra

ولكن لانجد في ذلك الكتاب اهتماماً واضحاً بشرق إفريقيا إذ قصر المؤلف همه إلى التعرض لمتابعة مسلمى الهند للبرتغاليين بصفة خاصة[1] وقد تميز الكتاب بحمية دينية بالغة ، الأمر الذى يؤكد أن الحرب البرتغالية في الشرق أثارت الروح الدينية التى عرفناها في العصور الوسطى .

والواقع أننا لانجد من المصادر العربية المعاصرة للفترة ما يستحق الذكر وفي تقديرى أن انشغال المسلمين بالتحول الجديد وبالحروب المستمرة بينهم

(١) زين الدين ــ تحفة المجاهدين فى بعض احوال البرتغاليين نشر David Lopes

وبين البرتغاليين وما تبع السيطرة البرتغالية من تدهور وانهيار اقتصادى ثم عزلة وجمود فكرى ، فضلاً عما تعرضت له الكثير من المراكز الإسلامية في شرق إفريقيا من حروب وحرق وتدمير ، كل هذه النواحى لم تساعد المؤرخين العرب على الكتابة عن تاريخ هذه الفترة التى ظلت مهملة بالنسبة للمصادر العربية .

وعلى الرغم من أنه لاتوجد لدينا مصادر معاصرة للفترة البرتغالية فإن بعض التواريخ المحلية التى كتبت في فترة متقدمة تطالعنا ببعض التفاصيل عن ملابسات العصر البرتغالى في شرق إفريقيا ، وقد ذكر أوين Owen في كتابه عن رحلته في شرق إفريقيا أنه عثر على مخطوطة عربية مدونه في ٢٨ شعبان ١٢٩٣ (١٨٢٢) عند أحد سكان منبسه وقد عرفت هذه المخطوطة باسم تاريخ آل المزروعى في منبسه[١] ، وقد عنى جيان Guillain بنقلها إلينا ، وتتناول هذه المخطوطة الفترة من وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا إلى العام الذى كتبت فيه ، وهى على هذا الأساس يمكن أن تمدنا بمادة مكملة لتاريخ كلوة ، خاصة وأن كلوة كانت السلطنة المسيطرة على مدن الساحل ، ولذلك فإن تاريخ آل المزروعى يمدنا بمعلومات عن الاتصالات التى قامت بين كلوة وبين البرتغاليين[٢] . ويذكر تاريخ آل المزروعى أن سلطان كلوة تسلم عدة رسائل من البرتغاليين بشأن المحالفة معه ولكنه تردد في عقد محالفة معهم فانصرف البرتغاليون إلى ماليندە . ويستدل من تاريخ المزروعى أيضاً على مدى التمزق الشديد الذى كان يعاني منه الساحل الشرقي لأفريقيا فماليندە في صراع مع منبسه ، وسفالية تابعة لكلوة ولكن شيخها يوسف ، وقد شجعته الاضطرابات الداخلية ، أعلن انفصاله عن صاحب كلوة وسمح للبرتغاليين في بناء قلعة في بلاده ، وهكذا وقفت إمارات ساحل شرق إفريقيا مواقف مختلفة بالنسبة لعلاقتها بالبرتغاليين .

---

(١) Cf. Owen W. F. Narrative of Voyages to Explore the Shores of Africa, Arabia and Madagascar 2 Vols London 1833.
see vol I pp. 415-417.
Cf. Chronicles of Mombassa, Translated From the Arabic Text.

(٢) Guillain, Documents sur l'Histoire, Geographie et Commerce de l'Afrique Orientale Tome I Expose critiques de diverses Notion acquises sur l'Afrique Orientale pp. 614-622.

ويفهم من تاريخ آل المزروعى في منبسة كيف عمق البرتغاليون الخلافات التى كانت قائمة بين مالينده ومنبسة ، وكيف تمكنوا من السيطرة على منبسة وذلك بمساعدتهم الأسرة المحالفة لهم في مالينده على الوصول إلى حكم منبسة ، وتذكر المخطوطة بصدد ذلك أن منبسة كانت تابعة لزنجبار ثم انفصلت عنها وتولى الحكم بها شاوو موفيتا (شاهو بن مشمم) منذ انفصالها ، ويبدو أن هذا الإسم إسم فارسى سواحلى مما قد يستدل منه أنه كان أحد أقارب الأسرة الشيرازية التى تأسست في كلوة .

وتذكر المخطوطة العربية أن شاهو هذا كان آخر أمراء الأسرة الشيرازية التى حكمت مدينة منبسة منذ انفصالها عن زنجبار ، وأن حاكم مالينده هو الذى خلف شاهو على منبسة وكان يدعى الشيخ أحمد ، وترتب على وصول الشيخ أحمد إلى الحكم في منبسه بمساعدة البرتغاليين له أن عقد معهم محالفة تمكنوا بواسطتها من إبقاء حامية عسكرية برتغالية في قلعة منبسة ولكن تمضى المخطوطة العربية فتذكر أن السلطان أحمد صاحب منبسة الجديد كان له ولداً يدعى شنجوليا فلما مات السلطان أحمد انتخبه الأهالى بالولاية عليهم في يوم السبت ٧ محرم ١٠٤٠ هـ الموافق ١٣ أغسطس ١٦٣١ ، ولم يرد في التاريخ شيء عن المدة الواقعة بين تاريخ وفاة أبيه في ١٦٢٧ وبين جلوسه هو على الحكم في عام ١٦٣١ . والأرجح كما تقرر المصادر البرتغالية المعاصرة أن البرتغاليين بعثوا به إلى جوا وكان يبلغ السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره عند وفاة أبيه وهناك عهدوا بتربيته إلى طائفة سانت أو غسطين ويقال إنه تنصر وتسمى باسم دون جيرونيمو . ولما عاد إلى منبسة وتسلم الحكم في عام ١٦٣١ سار بين الناس بالجور إذ كان يكرههم على أكل لحم الخنزير ، وكان على الجملة رجل سوء وشر ، وعلى الرغم من تحامل المخطوطة العربية عليه فإنها تسجل كفاحه في مقاتلة البرتغاليين الأمر الذي يفهم منه أنه كان يتصرف تلك التصرفات بهدف خديعة البرتغاليين إذ مالبثت منبسة بقيادة شنجوليا أن عادت مرة ثانيه لتزعم حركة النضال ضد البرتغاليين ، وعندما علم بأسطول برتغالى يتقدم إلى منبسة أسرع بتخريب المدينة وهاجر هو وقومه إلى اليمن ، وهيأ المسرح لظهور

عمان لتزعم مدن شرق إفريقيا في محاولات مستمرة للقضاء على السيطرة البرتغالية وإقصاء البرتغاليين من منطقة الشرق الأفريقى ، وللأسف أن تاريخ آل المزروعى لايذكر لنا مراحل تدخل عرب عمان في الصراع بينهم وبين البرتغاليين ونجداتهم المستمرة لأهالى شرق إفريقيا وإن كان تاريخ المزروعى مع ذلك يسجل سقوط حصن المسيح الذى بناه البرتغاليون في منبسة على أيدى الإمام سلطان بن سيف في ٩ جمادى الثاني ١١١٠ هـ الموافق ١٤ ديسمبر ١٦٩٨ ، وأن الإمام سلطان بن سيف اليعربي استطاع بعد إسقاطه لمعقل البرتغاليين الحصين في منبسة أن يسيطر على مدن ساحل شرق إفريقيا ، زنجبار وكلوة وبات وماليندە بل وصل إلى موزنبيق ولم يثنه عنها سوى انفجار لغم كان البرتغاليون قد وضعوه هناك ، وأنه أعمل الذبح والتقتيل في فلول الحاميات البرتغالية التى كانت مسيطرة على مدن الساحل الشرقي وجزره .

ويتعرض تاريخ المزروعى إلى وصول أسرة المعمورى إلى حكم منبسة نيابة عن السلطان العماني اليعربى وقد بقيت هذه الأسرة حتى عام ١٧٣٩ حينما استطاع محمد بن عثمان المزروعى الذى تنسب إليه أسرة المزروعى ، وهى تنتسب إلى قبيلة عربية تسكن على الساحل الغربي للخليج العربي ، من انتزاع ولاية منبسة من آل المعمورى ولم تلبث أن واتته الفرصة لكى يعلن استقلاله عن عمان ويؤسس حكماً مستقلاً في منبسة حينما سقطت أسرة اليعاربة في عمان وأعلن المزروعى عدم اعترافه بمؤسس الأسرة الجديدة التى حلت محل أسرة اليعاربة ، وهى أسرة البوسعيد ، وظل خلفاء محمد بن عثمان المزروعى يتعاقبون على حكم منبسة وتوابعها إلى أن أسقط السيد سعيد بن سلطان هذه الأسرة في عام ١٨٣٩ وكان سقوط هذه الأسرة من أهم العوامل التى مهدت للسيد سعيد بن سلطان أن يقوى من دعائم سلطته في شرق إفريقيا على أن تاريخ أسرة المزروعى يقف عند عام ١٨٢٢ ، وإذن فنستطيع أن نعتمد على المصادر العمانيه في تناولنا للأحداث التاليه نظراً للصلات الوثيقة التى قامت بين عمان وشرق إفريقيا وخاصة على عهد السيد سعيد بن سلطان غير أن ما يؤخذ على هذه المصادر أنها أولت اهتمامها بعمان والجزيرة العربية ولم تشر إلى الشرق الأفريقى سوى إشارات طفيفه ، ويعزو ذلك في تقديرنا

أنه على الرغم من أن عاصمة الدولة انتقلت من مسقط إلى زنجبار في عام ١٨٣٢ إلا أن العمانيين استمروا مع ذلك يعتقدون أن المناطق الأفريقية مناطق ملحقه وليست الأساس الذى تقوم عليه الدولة ، وعلى الرغم من هجرة كثيرين من العرب ذوى الثقل الاجتماعى والمادى إلى شرق إفريقيا فقد استمر مع ذلك لإقليم عمان مكانته الروحية فضلاً عن أنه كان المستودع الطبيعى للعناصر العربية التى تمد القسم الأفريقى من السلطنة بما تحتاجهمن مقومات ودماء عربية .

ولدينا من هذه الكتب العمانية كتاباً هاماً هو الفتح المبين المبرهن في سيرة السادة البوسعيديين تأليف حميد بن محمد رزيق بن بخيت وهذا الكتاب يعد من أهم مؤلفات هذا المؤرخ العماني إذ لديه بعض مخطوطات أخرى أقل أهمية محفوظه بمكتبة جامعة كمبردج .

وقد قام الدكتور بادجر Badger وهو أحد الباحثين الثقاة في تاريخ عمان بنشر هذا الكتاب ولكنه لم ينشر النص العربي وإنما اكتفى بترجمة هذا النص إلى اللغة الإنجليزية ولما كان النص العربي ينتهى في عام ١٨٥٦ وهى سنة وفاة السيد سعيد بن سلطان فقد أضاف بادجر إلى تاريخ بن رزيق تحليلاً تاريخياً للأحداث التى وقعت حتى عام ١٨٧٠ . وقد ذكر بادجر أن النسخة العربية قدمت له هدية من السلطان برغش بن سعيد أثناء زيارته إلى زنجبار حينما كان يقوم بمهمة التوفيق في النزاع الذى كان قائماً بين مسقط وزنجبار وقد نشر بادجر كتاب بن رزيق في عام ١٨٧١ بعنوان :

History of the Imams and Seyyids of Omam
By Salil Bin Razik

ولكن يلاحظ أن بادجر أخطأ خطأين أولهما أن إسم المؤلف ليس سليلاً كما ذكر بادجر إذ أن ابن رزيق ذكر أسمه أكثر من مرة في الكتاب وهو حميد بن محمد ، ولكن المؤلف ذكر أنه « سليل » بن رزيق فاعتقد بادجر أن سليلاً هو إسم علم .

والخطأ الثاني كتابة بادجر اسم المؤلف ابن رازق وصحته بن رزيق .

وقد ذكر حميد بن رزيق أنه انتهى من وضع هذا الكتاب في ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٢٧٤ هـ الموافق (١٢ ديسمبر سنة ١٨٥٧) وقسمه إلى ثلاثة أقسام أو ثلاثة كتب أسماها :

القسم الأول أو الكتاب الأول يعرض لتاريخ عمان من سنة ٤١ هـ أو ٦٦١م إلى اعتلاء الإمام أحمد بن سعيد الحكم في عام١٧٤١ ، والكتاب الثاني من احمد بن سعيد إلى حفيده سعيد بن الإمام ، ثم يخصص الكتاب الثالث لحياة وأعمال السيد سعيد بن سلطان وينتهى به إلى وفاته في عام ١٨٥٦ وقد أسمى القسم الأخير بالبدر الكامل .

ولاشك أن ابن رزيق يعد من الكتاب الموالين لأسرة البوسعيد بل ويعترف المؤلف في أكثر من موضع في هذا الكتاب أن هذه الأسرة كان لها فضل كبير عليه، وأن الإمام أحمد بن سعيد قد عين جده في إحدى الوظائف الرئيسية في الدولة .

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لايوجه عناية كافية للشرق الأفريقى ويركز اهتمامه بعمان حتى بعد انتقال مركز الحكم إلى زنجبار فإن أهمية الكتاب بالنسبة لتاريخ شرق إفريقيا تنحصر في ناحيتين : الأولى أنه يكاد يكون المصدر العربي الوحيد بين أيدينا الذى يتعرض لأصول العلاقات السياسية بين عمان وشرق إفريقيا ويتحدث بصدد ذلك عن ثورة العمانيين على الدولة الأموية وأنه كان من نتيجة فشل هذه الثورة التى تزعمها الجلنديون، وهى الأسرة التى كانت تحكم في عمان، أن فر هؤلاء إلى بلاد الزنج في عام ٦٨٤ م، ثم وفدت إليهم موجات أخرى من العرب حيث بدأ اختلاطهم وتزاوجهم مع أهالى شرق إفريقيا، والواقع أن معلوماتنا عن تأسيس الإمارات الإسلامية الفارسية أو العربية في شرق أفريقيا لاتزال كما سبق أن ألمحنا معلومات قاصرة ، وخاصة أن المصادر العربية العامة قد تجاهلت هذه الفترة ومن ثم فإن اعتمادنا يرتكز على المصادر السواحلية فيما يختص بنشأة هذه الإمارات وتطوراتها وإن كانت هذه المصادر المحلية السواحلية تحتاج إلى حذر بالغ عند الاعتماد عليها كمادة تاريخية بالنظر لما علق بها من أساطير أو خيال .

والأهمية الثانية لكتاب ابن رزيق أنه متمم لتاريخ آل المزروعى في منبسة خاصة حينما يعرض لصراع السيد سعيد ضد المزروعيين[١] ، وتمكنه في نهاية الأمر من إسقاط الأسرة المزروعية في عام ١٨٣٩ ، واتجاهه بعد ذلك إلى السيطرة على مدن شرق إفريقيا ، ومع ذلك لايكاد المؤلف ينصرف إلى الأحداث في شرق إفريقيا حتى تشده الأحداث التى تجرى في عمان وعن تردد السيد سعيد بين آونة وأخرى من عاصمته الجديدة زنجبار ومجيئه المتكرر عمان لكى يعالج المشكلات الداخليه والخارجية التى تتعرض لها فهو ينهى كتابه بحرب السيد سعيد مع فارس ورجوعه بعد عقد الصلح إلى زنجبار ١٨٥٦ ووفاته على ظهر السفينة التى حملته إلى عاصمته الجديدة زنجبار[٢] .

ويمكن بشئ من التجاوز أن نضيف مصدرين هامين للمصادر التى تناولت تاريخ شرق إفريقيا ، وأحد هذين المصدرين وضعته ابنة السيد سعيد السيدة سلمى والآخر كتبه حفيد السيد سعيد .

والمصدر الأول يتضمن ذكريات السيدة سلمى في قصر الموتنى بزنجبار وقد تزوجت من أحد الضباط الألمان ويدعى رويت Ruete وانتقلت معه إلى بلاده وتسمت باسم إميلى Emily ووضعت هذا الكتاب باللغة الألمانية بعنوان مذكرات أميرة عربية وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغتين الانجليزية والفرنسية وقد تناولت في هذا الكتاب جوانب شيقة من نظم القصر والبلاط وحياتها في بيت المتونى في حياة أبيها السيد سعيد، ثم تعرضت إلى النزاع الذى حدث بين أخويها ثوينى وماجد حول ميراث أبيهما السيد سعيد، وحول تقسيم ملك أبيها فيما بينهما[٣] . وقد وفدت السيدة سلمى إلى زنجبار في عهد أخيها السيد برغش بن سعيد لتطالب بنصيبها من تركة أبيها ويبدو أن الحكومة الألمانية هى التى دفعتها إلى ذلك حتى تجد من ورائها وسيلة للضغط على السيد برغش باعتبارها قد أصبحت رعية ألمانية .

---

(١) Badger, History of the Imams and Seyyids of Oman by Salih Bin Razik pp. 348-349.

(٢) Bin Razik, op. cit., p. 355.

(٣) Cf. Emiby Ruete, Memoire d'une Princesse Arabe Paris.

أما المصدر الآخر فقد تناول ترجمة للسيد سعيد بن سلطان وضعها ابن السيدة سلمى وحفيد السيد سعيد رودلف رويت وقد نشر هذا الكتاب باللغة الانجليزية في عام ١٩٢٩ بعنوان

Said Bin Sultan
Ruler of Oman and East
Africa (1791 — 1856)

وقد اهتم فيه رودلف بإبراز شخصية السيد سعيد في المجال الدولى وعلاقاته الخارجية وأهم مميزات شخصيته كما تناول إلى جانب ذلك دراسة لتاريخ عمان وشرق إفريقيا قبل وصول السيد سعيد إلى الحكم .

كما له إلى جانب ذلك الكتاب محاضرة ألقاها في الجمعية الملكية الآسيوية في لندن في يوليو سنة ١٩٢٩ عن أسرة البوسعيد في الجزيرة العربية وشرق إفريقيا

The Al Bu Said Dynasty inArabia and East Africa

كما له إلى جانب ذلك أيضاً قائمة تاريخية بيبليوجرافية خاصة بأسرة البوسعيد من مؤسسها أحمد بن سعيد إلى وفاة السيد سعيد :

Dates and Refrences of the History of the Al Bu Said Dynasty from the time of it's founder Ahmed Bin Said till the death of Said Bin Sultan.

وبعد وفاة السيد سعيد انتهزت الحكومة البريطانية في الهند وقوع الصراع بين أبنائه ماجد وثوينى فأوفدت لجنة للتحقيق في هذا النزاع وذهبت اللجنة إلى كل من مسقط وزنجبار ووضعت تقريراً استند عليه اللورد كاننج نائب الملك في الهند في إصدار تحكيمه المشهور والذى قضى فيه باستقلال زنجبار عن مسقط حيث تم إعلانهما سلطنتين مستقلتين بمقتضى التصريح الانجليزى الفرنسىَ المشترك الذى صدر في العام التالى ١٨٦٢ .

وهكذا استقلت سلطنة زنجبار عن عمان وفقدت بالتالى المقومات العربية التى كانت تعتمد عليها في إبراز شخصيتها العربية وبدأت تخضع منذ ذلك الوقت للتأثيرات الاستعمارية خاصة وأن الاستعمار الانجليزى حرص حرصاً شديداً على مسخ الشخصية العربية للسلطنة ولم تعد اللغة العربية إلا لغة الطبقة

الأرستقراطية الحاكمة وأخذ معين المصادر العربية ينضب بالتالى ومع ذلك فقد حرص حكام السلطنة على اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية لهم وقد عثرنا في المكتبة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية على سجل للمراسلات السياسية للسيد برغش بن سعيد يحمل رقم ١٤٨٨ ويتكون هذا السجل من ثلاثة وعشرين ورقة تتخللها مكاتبات ذكر السجل أن بعضها بخط السلطان برغش وكلها تحمل تاريخ ١٢٨٦ هـ المقابل لعام ١٨٧٩ م .

وهذه المكاتبات موجهة من السيد برغش إلى ولاته في كل من قسمايو ولامو وكلوة وماليندى وبراوة كما يتضمن السجل مراسلات أخرى من السيد برغش إلى قناصل الدول الأجنبية في زنجبار خاصة قناصل انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وبيت الفريد رابو Rabaud وهو من البيوتات التجارية الفرنسية الشهيرة التى كان لها نشاط واضح في شرق إفريقيا . والملاحظة على هذه المكاتبات الموجهة إلى الولاة أنها تقتصر على الولاة القائمون بمدن الساحل بينما لاتوجد مكاتبات لولاة المقاطعات الداخلة الأمر الذى يفهم منه أن السيد برغش بن سعيد لم يكن يمارس نفوذا سياسياً على مقاطعات الداخل ، ولعل ذلك هو الذى شجع كل من ألمانيا وبريطانيا عند تقسيمها سلطنة زنجبار إلى مناطق نفوذ بريطانية وألمانية ألا يعترفا للسيد برغش بأى سلطان حقيقى له في الداخل وقصرت كل من الدولتين اعترافهما في المادة الأولى من اتفاقية أكتوبر سنة ١٨٨٦ على سلطة سلطان زنجبار على الجزر وعلى الساحل الممتد من منجاني جنوباً حتى لامو بعمق عشرة أميال في الداخل وعلى مدن قسمايو وبراوة ومركة ومقديشيو في دائرة قطرها عشرة أميال ، ووراشيخ في دائرة قطرها خمسة أميال . ولكن اللجنة تجاهلت الروابط الاقتصادية التى كانت تربط السلطنة بمقاطعات الداخل ففى عهد السيد برغش جهد التجار العرب للامتداد إلى الداخل واشتهر من هؤلاء التجار حميد الدين المرجبي أو تيبوتيب وللأسف أننا لا نملك مصادر عربية تتحدث عن هذا الرجل إلا ماأورده جورجى زيدان في كتابه عن أشهر مشاهير الشرق إذ أفرد له ترجمة في الجزء الأول

من كتابه وتعرض فيها للجهود التى بذلها المرجبى في السيطرة على الكنغر وعلاقاته بكل من الانجليز والبلجيك .

وقد ذكر جورجى زيدان أنه نقل هذه الترجمة من الشيخ ناصر بن سليمان اللمكى وأورد فيها انتماء المرجبي إلى قبيلة المراجبة وهذه القبيلة لعبت دوراً كبيراً في تأكيد النفوذ العربي على ساحل شرق إفريقيه واستعان بها الأئمة اليعاربة في القضاء على نفوذ البرتغاليين في القرن السابع عشر والثامن عشر وقد وصلت هذه القبيلة إلى زنجبار واستقرت بها منذ عهد السيد سعيد بن سلطان واتخذت مركزها جنوب مدينة دار السلام وقد ولد المرجبى في زمن السيد سعيد في عام ١٢٤٨هـ ولكن نشاطه اتضح في عهد ماجد بن سعيد وأخيه برغش بن سعيد وقد استعان به كل من ماجد وبرغش في تأكيد نفوذهما في داخل إفريقية وكانت كل من أوجيجى وتابوره والكونغو من أهم مناطق نشاطه في التجارة حينا وفي السيطرة حينا آخر ويستدل من ترجمة المرجبى على أنه كانت له صلة مستمرة بسلاطنة زنجبار الذين كانوا لايوالون عن تقديم الأسلحة إليه وقد أورد المترجم رسالة بعث بها برغش بن سعيد إلى حميد بن محمد المرجبي يهنئه فيها على انتصاره في تابوره وأوجيجى وقد استعان به كل من البلجيك والانجليز — لتهدئة ثائرة العرب ضد البلجيك في الكونغو خاصة وأن البلجيك وجدوا مقاومة شديدة من التجار العرب في المنطقة وقد استعان البلجيك بالزنوج لطرد العرب نتيجة للعداء الذى عمدوا إلى تقويته بين الزنوج وبين تجار العرب من تجار الرقيق واستطاع القنصل الانجليزى في زنجبار التأثير على المرجبى بالوعود حتى تم الاتفاق بين عرب الكونغو والبلجيك[1] .

ولكن ماكاد يتم الاتفاق ويتمكن البلجيك من الاستقرار حتى نكلوا بالعرب وقضوا على دولتهم فى الكونغو وإفريقية الوسطى.

ويستدل من ترجمة المرجبى على النفوذ التجارى الذى كانت تتمتع به سلطنة زنجبار في داخل إفريقيا خاصة وأن سلطنة زنجبار كانت تعتمد منذ قيامها على الدعامة الاقتصادية وعلى حركة مرور القوافل من الساحل إلى

---

(١) جورجى زيدان — تراجم مشاهير الشرق جـ ١ ص ١٦٨ — ١٧٣

الداخل حيث كانت تحصل على موارد كبيرة من العاج والرقيق ، وإلى جانب ترجمة جورجى زيدان لحميد الدين المرجبى كتب عنه الأستاذ الشاطر بوصيلى مقالة صغيرة في مجلة نهضة إفريقيا والواقع أننا لانزال في حاجة إلى دراسات أخرى عن النفوذ العربي في الكنغو وفي أواسط إفريقيا وفي منطقة البحيرات الاستوائيه ، وقد تفيدنا في ذلك الصدد كتابات الرحالة الأوربيين والمبشرين من رواد حركة التبشير والكشف الجغرافي في إفريقيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر خاصة وأن هؤلاء استفادوا من المراكز التجارية التى كان ينشئها التجار العرب على طول طرق القوافل والتى كانت بمثابة مراكز حضارية ساهمت إلى حد كبير في إلقاء الضوء على مجاهل القارة الأفريقية .

وقد امتدت سلطنة زنجبار في الوقت الذى حدث فيه التوسع المصرى في عهد الخديوى إسماعيل في إفريقيا حينما امتد النفوذ المصرى إلى بلاد السودان والبحر الأحمر ثم تدفق هذا النفوذ إلى ساحل الصومال . وتعتبر الإمبراطورية المصرية في إفريقية في عهد الخديوى إسماعيل وسلطنة زنجبار في عهد خلفاء السيد سعيد، ماجد وبرغش، أقوى الدول الأفريقية العربية التى كان من المنتظر أن يتكون من اتحادهما قوة يمكن أن تواجه النفوذ الاستعمارى الذى بدأت تتعرض له إفريقيا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي الواقع أننا نجد بعض المصادر العربية التى تحدثنا عن اتجاهات لتعاون هاتين الدولتين ، ثم نجد مصادر أخرى تحدثنا عن التوتر الذى حدث بينهما بفعل السياسة البريطانية التى حرصت على أن توقع بين هاتين القوتين حتى تتمكن من ابتلاع إحداهما وراء الأخرى بعد تقسيمها وتجزئتها إلى أجزاء صغيرة تسهل عليها عملية الابتلاع هذه .

ومن أهم المصادر التى أشارت إلى العلاقات بين مصر وسلطنة زنجبار كتاب اسماعيل سرهنك المعروف باسم حقائق الأخبار عن دول البحار والكتاب يقع في ثلاثة أجزاء يهمنا الجزء الثاني الذى يتعرض فيه لتاريخ مصر أما الجزئين الأول والثالث فهما يخرجان عن موضوع هذه الدراسة لأن الأول

يتناول تاريخ الدول الإسلامية البحرية والثالث يتناول بعض جوانب من تاريخ أوربا ، ويوجد في الكتاب بعض صور الوثائق التى استطاع اسماعيل باشا سرهنك أن يحصل عليها بحكم مركزه وبحكم الوظائف التى تولاها في البحرية المصرية وبعض هذه الوثائق نادر لايوجد في مراجع أخرى . ومن هذه الوثائق صورة خطاب كتبه السلطان ماجد بن سعيد سلطان زنجبار إلى الخديو إسماعيل في شهر محرم سنة ١٢٨٢ وسلمه إلى قائد السفينتين المصريتين الابراهيمية وسمنود بمناسبة مرورهما بزنجبار في طريقهما من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر عن طريق رأس الرجاء الصالح قبل افتتاح قناة السويس . وكانت هذه السفن قد أوصى الخديو اسماعيل بشرائها من أوربا ، وأمر بنقلهما إلى مصر وسافرت السفينة الأولى الإبراهيمية في عام ١٢٨١ هـ تحت قيادة مصطفى بك العربي وقد عرج في طريقه على زنجبار حيث أكرم سلطانها وفادته هو وجميع من كان بالسفينة المذكورة من المصريين وأهدى قبطان السفينة سيفاً مرصعاً وأشياء أخرى ، وأرسل معه رسالة ودية إلى الخديو إسماعيل وكتب له الخديو يشكره على ذلك برسالة ودية أخرى[1] .

أما الوثيقة الثانية التى ذكرها سرهنك فتتضمن مشروع معاهدة بين مصر وزنجبار ، ويذكر بصدد ذلك أن الحملات العسكرية كانت منذ عام ١٨٧٥ تسافر إثر بعضها إلى قلب القارة الأفريقية لبث النفوذ المصرى بين قبائلها وسكانها وكانت تلك القبائل تقابلهم بالحفاوة والخضوع وفي عام ١٨٧٢ وصلت إحدى هذه الحملات المصرية العسكرية عن طريق أوغندا إلى زنجبار . وهناك استقبلت بترحاب بالغ وأظهر لها السكان ميلهم إلى الحكومة المصرية وقابل قائدها ملك زنجبار الذى أكرم مثواه وأظهر له شديد رغبته في مصادقة الحكومة المصرية وأنه يريد الاستظلال بالعلم العثماني المصرى على شرط أن يكون صاحب امتياز يضمن له حقوقه وحقوق أسرته ورعاياه

---

(١) اسماعيل سرهنك ـ حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ ، ص ٣١٨ ـ ٣١٩

وأخبره أنه يخطب باسم أمير المؤمنين وسلطان العثمانيين في كل بلاده ثم عقد مع القائد المصرى معاهدة كانت تتكون من مواد سته :

تنص المادة الأولى على أن تكون سلطنة زنجبار تحت الحماية الإسلامية العثمانية المصرية ويكون الملك محصوراً بالتوارث بين ذرية السلطان الحالى أو بين أعضاء أسرته ، بمعنى أن يكون امتياز السلطان في سلطنته شبيهاً بامتياز الخديو إسماعيل باشا وأسرته في مصر .

وتنص المادة الثانية على أن ترسل الحكومة المصرية موظفين من قبلها ليقوموا بتأليف هيئة الحكومة في زنجبار وبتنظيم المالية والجند طبقاً للأنظمة المتبعة في الحكومة المصرية . ولا يجوز تعيين مصرى لأية وظيفة كانت إذا وجد وطنى يقدر على القيام بها .

وتنص المادة الثالثة على أن ترسل الحكومة المصرية مندوبين من أصدقائها ورجالها الخبيرين ليؤيدوا كل النظامات التى تسن في مملكة زنجبار بشأن إنشاء نظارات مالية وداخلية وحربية ونظارة معارف ونظارة أشغال يكون التلاميذ المتخرجون في مدارس السلطنة مقدمين على غيرهم في الترشيح للوظائف ولايجوز لمصر أن تطلب عساكر من زنجبار إلا إذا حدثت حرب دينيه بين أمير المؤمنين وعدو آخر فيطلب هو نفسه حينئذ جنوداً من زنجبار ثم أن علائق مملكة زنجبار وصلات شئونها كلها مع الدول الأجنبية يكون عقدها وحلها على يد نظارة الخارجية المصرية .

وتنص المادة الرابعة على أنه لايجوز للحكومة المصرية في سلطنة زنجبار أن تعين أحداً من الأجانب الغير مسلمين إلا إذا كانوا من رعاياها فلا بأس حينئذ من منحهم وظائف .

أما المادة الخامسة فقد نصت على أن جميع الأموال التى تجبى من مملكة زنجبار تنفق في شئونها وما بقى بعد ذلك يؤخذ إلى الخزانة المصرية وتكون مصر ملزمة بصرف كل أزمة مالية أو عسكرية تصيب سلطنة زنجبار .

أما المادة السادسة وهى المادة الأخيرة من مشروع هذه المعاهدة فقد نصت على أن تكون هذه المعاهدة سارية المفعول بعد اطلاع خديو مصر عليها وإصدار أمر بقبولها .

ولكن سرهنك يذكر أن غوردون ، وكان حينئذ حاكماً على مديرية خط الاستواء ، عرقل هذه المساعى فكتب إلى السلطان برغش يحذره من وقوع سلطنته تحت الحماية المصرية وفي نفس الوقت أوفد إلى الخديو إسماعيل بأن سلطان زنجبار يسىء معاملة التجار المصريين[١] .

والواقع أن اسماعيل سرهنك هو الذى انفرد بتفصيل ذلك الموضوع إذ لم نعثر على مشروع هذه المعاهدة في وثائق عابدين أو في المصادر الأخرى التى تعرضت للعلاقات بين مصر وزنجبار .

أما وثائق عابدين فهى تعرض للعلاقات الودية بين مصر وزنجبار ثم تعرض أيضاً لتوتر العلاقات بينهما ففى محافظ السودان ١٢٩٢هـ (١٨٧٥ م) توجد بعض الوثائق التى تتناول مرور السيد برغش بن سعيد بقناة السويس عند زيارته للملكة فيكتوريا بلندن[٢] ، ثم عن زيارته لمصر عند عودته من لندن وعن الهدايا التى أرسلت من مصر والتى كانت تتضمن بعض الأسلحة والكتب إلى زنجبار بمناسبة هذه الزيارة[٣] ، وعن حضوره احتفال مهرجان جبر النيل مع الخديوى إسماعيل في عام ١٨٧٥[٤] .

ولكننا نجد في وثائق أخرى بوادر عن الصدامات التى وقعت بين سياسة إسماعيل في الصومال وبين سلطات زنجبار التى كانت تسيطر على الجزء الجنوبي

---

(١) سرهنك ــ حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ ص ٣١٩

(٢) وثائق عابدين ــ صورة التلغراف رقم ١٥٦ بتاريخ ١٨ ربيع ثانى ١٢٩٢ من محافظ السويس الى المعية السنية .

انظر أيضا تلغراف رقم ١٧٥ بتاريخ ٢٠ ربيع ثانى ١٢٩٢ من محافظ بورسعيد الى مهردار الخديوى .

(٣) انظر محافظ السودان ١٢٩٢ دفتر رقم ٣٢ صورة التلغراف العربى رقم ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٩ بتاريخ ٨/٦/٥ رجب ١٢٩٢ من محافظ مصر الى مهردار خديوى .

(٤) وثائق عابدين دفتر رقم ٣٢ صورة التلغراف العربى رقم ١٠٩ من محافظ مصر الى سعادة مهردار الخديوى .

من ساحل الصومال ، وذلك بعد أن حاول إسماعيل تنفيذ المشروع الخاص بضم البلاد الواقعة جنوب غندكرو وذلك بواسطة الطريق الموصل من منبسة إلى أوغندة . وكان هذا المشروع قد عرضه الضابط الأمريكى « شاى لونج» على الخديو في بداية الأمر وعرضه الخديو إسماعيل بدوره على غوردون باشا حاكم مديرية خط الاستواء . ويلاحظ أن هذه المراسلات الخاصة بفتح هذا الطريق كانت تتم بتكتم شديد ، ويفهم من الوثائق أن الانجليز كانوا يعملون على عرقلة المشروع المصرى وذلك بتأكيد حقوق سلطان زنجبار على الساحل

وقد ظهر ذلك على وجه الخصوص في عام ١٨٧٥ بعد نجاح مصر في الاستيلاء على هرر وبدأت تعمل على الاستيلاء على ساحل الصومال جنوب المحيط الهندى والذى كان يتبع سلطنة زنجبار لتحقيق مشروع عاجل يتصل اتصالاً كلياً بالمشروع العام الخاص بتوسع مصر في إفريقية ، ويقتضى هذا المشروع امتلاك مصر لمنفذ على ساحل إفريقيا الشرقي في موازاة خط الاستواء لإنشاء مواصلات مع المديريات الاستوائية التى كان قد تم فتحها تكون أسهل وأقصر من مواصلات النيل ، ومن العجيب أن هذا المشروع الضخم ستعمل إنجلترا على إحباطه،ولكنها ستعاود تنفيذه بنفسها فيما بعد حينما حملت إبان الحرب العالمية الأولى علىإنشاء سكة حديد كمبالا — منبسة .

والواقع أن تفكير الخديو في هذا المشروع يرجع إلى عام ١٨٧١ وكانت آخر محاولة لتنفيذه في عام ١٨٧٦ . وقد مرت جميع محاولات تنفيذ المشروع بتكتم بالغ ، كما حرص الخديو إسماعيل أن يبعث إلى قواد حملاته بأن لايسيئوا إلى القبائل الإفريقية ولا يسيئوا في نفس الوقت لتجار العاج والرقيق وتتضح هذه السياسة في رسالة بعث بها اسماعيل إلى الكولونيل بيوردى Burdy يطلب منه أن يتبع سياسة معتدلة إزاء القبائل الأفريقية يقول فيها « يجب أن تفهم أن مهمتنا لايربطها بمهمة تجار العاج والرقيق أى غرض مشترك والتجار يجب أن يفهموا أنك لاتذهب للإضرار بمصالحهم » ، غير أن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح ومن ناحية أخرى أن التوسع المصرى في منطقة البحيرات الاستوائية لم يكن قد استتب بطريقة تسمح أن يتم هذا الاتصال بين الساحل والداخل .

ولكن في عام ١٨٧٤ بدأت الممتلكات المصرية تتسع في جنوب السودان وأعلن الخديو رسمياً بأن البلاد التى حول غندكرو دخلت في حوزة الخديوية المصرية وسميت غندكرو باسم الاسماعيلية وعين الكولونيل غردون حاكماً لمديرية خط الاستواء في نفس ذلك العام ليتم ما كان قد شرع فيه السير صمويل بيكر من مد نفوذ مصر إلى بحيرة فيكتوريا نيانزا . وفي عام ١٨٧٥ عزم الخديوى إسماعيل على إرسال تجريدة مصرية إلى بلاد الصومال الجنوبية لإدخال البلاد الواقعة على نهر جوبا المذكور في قبضة مصر حتى يتيسر له إيصال أملاكها في شرق إفريقية بما لها من ممتلكات في جهات خط الاستواء فجهز لذلك تجريدة عسكرية بقيادة ماكيلوب باشا رئيس مصلحة المنارات بدلاً من القائد الأمريكى بيوردى ويبدو أنه كان يهدف من ذلك استمالة الانجليز إليه وإن كان ذلك لم يمنع الخديو من مراقبة ماكيلوب بواسطة شاى لونج الأمريكى الذى أشركه معه في الحملة وكذلك بواسطة بعض القواد والمهندسين المصريين(١) .

وقد أقلعت هذه الحملة من ميناء السويس في ١٧ فبراير سنة ١٨٧٥ ولما وصلت إلى رأس حفون نزل ماكيلوب واستدعى جميع رؤساء القبائل ودعاهم للانتماء إلى الحكومة المصرية فأجابوه إلى ذلك طائعين فخلع عليهم وركز العلم العثماني المصرى هناك ثم بارح ذلك المكان ولم يبق به حامية ومازال يتقدم ويركز الأعلام المصرية العثمانية حتى وصل بلدة براوة شرقي نهر الجب وكانت تابعة لحكومة زنجبار فأرست البواخر المصرية هناك ثم نزلت نصف القوة المصرية إلى البر ومعها مكيلوب باشا الذى طلب مشايخ القبائل فلما حضروا عرض عليهم أمر الاتحاد مع مصر وأفهمهم ما في ذلك من الفوائد لهم فأجابوا بالقبول لما رأوه من القوة المصرية التى هالتهم وأدهشتهم بحركاتها الحربية التى أجرتها أمامهم ولم يكونوا شاهدوا ذلك قبلاً وجعل لهم محافظاً وحامية مركبة من بلوك من البيادة، ثم تقدم هذا القائد حتى وصل إلى فم نهر جوبا المذكور وأراد السير فيه إلا أن الأمواج صدته

---

(١) محمد صبرى ــ تاريخ الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٢٩ ــ ٣١ القاهرة ١٩٤٨

وغرقت بعض المراكب والعساكر ولما أخذ ما يلزمه من مياه الشرب عاد إلى قسمايو التى سميت في الخريطة التى وضعها ضباط أركان حرب الجيش المصرى باسم بور اسماعيل التى اندهش أهلها لما رأوا هذه التجريدة وأقبلوا فى زوارقهم سائلين من أين أتت وما المقصود من حضورها فأخبرهم القائد بأن القصد اكتشاف نهر الجب وأنه لا خوف عليهم وبعد ثلاثة أيام نزلت العساكر إلى البر وسارت نحو النهر وأخذ الكولونيل لونج بالاكتشاف في النهر على زورق بخارى على مسافة ١٥٠ ميل ورسم أحد ضباط الحملة خريطة وصف فيها مجرى هذا النهر .

وقد ذكر شاى لونج أنه كان ينتظر اتصال غردون به في هذا الشأن للوصول إلى المناطق الداخلية ولكنه لم يتلق أى رسالة منه ويعتقد أن ذلك كان نتيجة لوصول تعليمات من الحكومة الإنجليزية إلى غردون توجب عليه عدم التعاون مع الحملة المصرية[١] .

وتسجل لنا وثائق عابدين[٢] صحة ما ذهب إليه لونج في اعتقاده ففى برقية سرية في ٩ محرم ١٢٩٢ من الخديو اسماعيل إلى الكولونيل شاى لونج رداً على برقيته يقول فيها «بخصوص اتخاذ الطريق الموصل من منبسة إلى محل إقامة العساكر بقرب الملك متيزة لأجل الحصول على البلاد الكائنة بجنوب كندكرو حيث أن هذه المسألة يقتضى الوقوف عن أفكار ومعلومات غردون باشا فيها ، فيقتضى مذاكرتكم والوقوف على حقيقة آراءه ومعلوماته في ذلك مع أخذ التقارير والتعليمات التى تختص بهذه المسألة منه بحيث تكون مستوفية ، وتكون هذه المسألة سرية بينكم وبينه دون أن يشعر بها أحد »[٣] .

كما بعث الخديو إلى غردون يطلب منه التعاون معه وإمداده بمعلومات عن المنطقة ولكن من المؤكد أن غردون أهمل الإتصال بلونج وبعث إلى الخديو

---

(١) اسماعيل سرهنك — حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢

(٢) ذكر شاى لونج أن الغرض لم يكن مجرد كشف وانما محاولة الوصول الى منطقة البحيرات الاستوائية وكانت الحملة تنتظر اتصال غردون بها بهذا الشأن ولكنها لم تتلق اى اتصال من الخديو ويبدو أن ذلك كان نتيجة لوصول تعليمات من الحكومة الانجليزية الى غردون توجب عليه عدم التعاون مع الحملة . وفى الواقع اننا نجد فى وثائق عابدين ما يؤيد هذا الاعتقاد .

(٣) محافظ السودان ١٢٩٢ دفتر ٢١ عابدين صورة التلغراف العربى.

«أنه من المستحسن أن تترك الفكرة بافتتاح السكة إلى البحر المالح مؤقتاً لأنه باطلاعنا على الفزيتات وجدنا أن الإنجليز أخذوا ممباز لأجل إعطائها إلى سلطان زنجبار ، وما دام أخذوها فلا يكن لنا فيها مدخل ، ويقترح على الخديو أن يعدل عن هذا المشروع ويستعيض عنه بمشروع آخر وهو المشروع الذى يوصل هذه المنطقة بطريق النيل وأن فتوح السكة لحد البرك أمر مهم جداً»(١) .

وبينما كانت القوات المصرية تنتظر اتصالات غردون بها بلا جدوى بدأت هذه القوات تتعرض لضغط الإنجليز عليها ، وتسجل وثائق القاهرة أن الإنجليز تدخلوا في هذه المناطق باسم سلطان زنجبار على الرغم مما حاولته الحملة المصرية أن تتحاشى بقدر الإمكان الإحتكاك بينها وبين المناطق التى تظهر فيها السيادة واضحة بالنسبة لسلطنة زنجبار عليها ، ولكن رؤساء القبائل كانوا يخشون على مراكزهم بطبيعة الحال من الحملة المصرية على الرغم من ترحيبهم بها في بداية الأمر ، فبعثوا إلى السلطان برغش سلطان زنجبار بأن الحكومة المصرية تريد الإستيلاء على بلادهم كما أن قبائل براوه حاصرت محافظ براوة المصرى هو ومن معه من الجنود . وتكشف بعض الوثائق أن قائد الحملة بعث يشترى فحماً لوقود السفن من زنجبار ، وهذا يثبت أن المناطق التى استولت عليها مصر في ساحل الصومال الجنوبي كانت تبعيتها لسلطان زنجبار تكاد تكون غير واضحة تماماً ومع ذلك فقد طلب سلطان زنجبار من قائد السفينة التى ذهبت لشراء الوقود ، بعد أن أجابه إلى طلبه ، ضرورة مغادرة هذه المناطق قبل أن يتفاقم الأمر ، ورد قائد السفينة بأن القوات المصرية لا تفكر في احتلال هذه المناطق وإنما قدمت لاكتشاف تلك الجهات ولكن السلطان ألح عليه بضرورة الإنسحاب وإلا فإنه سيعلم إنجلترا بما حدث لأنه هو وبلاده تحت حمايتها ، وبطبيعة الحال أن انجلترا لم تكن تنتظر أن يطلعها سلطان زنجبار على التحركات المصرية إذ أسرع القنصل البريطاني في زنجبار الدكتور جون كيرك Kirk بإرسال مدفعية إنجليزية إلى براوة

---

(١) محافظ السودان ١٢٩٣ . صورة التلغراف العربى ــ الشفرة رقم ٢٢٩ ص ٣٩

من مأمور جهات خط الاستواء الى خيرى باشا فى ٧ ربيع ثان ١٢٩٢هـ.

للوقوف على حقيقة الأمر وبالفعل تقابل القائد الإنجليزى مع ماكيلوب باشا قائد الحملة المصرية الذى كان قد تمكن من فك حصار القوات المصرية في براوة وأعاد الأمن للمدينة .

وتنتهى حوادث حملة الصومال الجنوبي في عام ١٨٧٦ بتوقيع الإتفاقية المصرية الإنجليزية الخاصة بتجارة الرقيق في عام ١٨٧٧ ويمكن القول أن الخديو اسماعيل آثر عدم التصادم مع الإنجليز ومن ناحية أخرى يفهم من التقرير الذى أعده فدريجو باشا مفتش عموم وابورات البوستة الخديوية الذى كان قد أوفده الخديو للتفتيش على النقط التى احتلتها هذه الحملة بأن المواصلات بين النقط العسكرية صعبة ولذلك طلب الخديو من ماكيلوب باشا الإنسحاب خاصة وأن مصر كانت مقبلة على حرب ضد الحبشة وأن بريطانيا لم تكن ترحب بوصول مصر إلى هذه المناطق .

وقد يكون من المناسب أن نعرض هنا لتقرير عن حوادث مأمورية سواحل إفريقية الشرقية وهذا التقرير مقدم من عبد الرازق بك رئيس أركان حرب المأمورية وناظر المدرسة الحربية وهو مؤرخ في ٨ ذى القعدة ١٢٩٢ الموافق ٦ ديسمبر ١٨٧٥ ، ويحتوى هذا التقرير على ثلاث وقائع هامة مرتبطة بعضها ببعض وهى توضح التطورات التى مرت بها حملة الصومال الجنوبي المصرية ، الأولى : أن ماكيلوب باشا وفريدريجو باشا والكولونيل ورد بك قاموا على رأس قوة لاستكشاف جهة لامو وفورموزا في طريق منبسة وأن أحد أمراء جزر القومور أخبر بوجود معدن فحم حجرى ونحاس غربي منبسة وأن أهالى تلك الجهة يودون التتبع للحكومة المصرية .

والثانية : أن الأمير محمد نجل السلطان عبد الله سلطان جزيرة خزوان ومعه كتاب من سلطان جزيرة القومور الكبرى أبدوا رغبتهم في التتبع للحكومة المصرية وكذا جزيرة مهلة وبندر منياص ، وأنهم وصلوا قسمايو بقصد التوجه إلى المحروسة في ظل الحكومة الخديوية وهذه الجزائر المختلفة تسمى جزائر القومور وهى واقعة في الشمال الغربي من جزيرة مدغشقر .

أما الواقعة الثالثة فهى وصول كتاب من قومندان براوة يقول فيه « إنه بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٨٧٥ وصلت سفينة حربية إنجليزية بالقرب من براوة

وأن قومندان السفينة بصحبة أحد قناصل الإنجليز وترجمان بعض الجنود الإنجليز أرادوا النزول إلى البر ولكن اليوزباشي قومندان براوة أفهمهم أنه لا يستطيع الإذن لهم بإنزال جنود مسلحين على أرض تحتلها القوات المصرية ، وأنه بتاريخ أول ديسمبر سلم أحد ضباط السفينة خطاباً إلى اليوزباشي يبلغه فيه أنه لم يمنع قط من قبل من إنزال جنود مسلحين في هذه المناطق فرد اليوزباشي أن هذه البلاد أصبحت تابعة لمصر وعندئذ غادرت السفينة براوة قاصدة زنجبار ، وجاء في الختام أن هذه السفينة كانت مكلفة بقمع تجارة الرقيق على سواحل إفريقية الشرقية » .

والواقع أن بريطانيا استغلت حركة مكافحة تجارة الرقيق للسيطرة على الموانى التابعة لمصر وزنجبار في سواحل إفريقية الشرقية والمهم أن وصول القوات المصرية إلى ساحل الصومال الجنوبي كان محاولة من جانب مصر لتسبق إنجلترا في السيطرة على هذه المناطق التى لم تكن تتبع سلطنة زنجبار سوى تبعية إسمية واهية ، ومع ذلك فقد أوعزت إنجلترا للسيد برغش بن سعيد أن يحتج على احتلال مصر لهذه المناطق وبادرت من جانبها إلى تأييده وبالفعل نجحت في حمل الخديو اسماعيل على التراجع عن حملة جنوب الصومال ، واضطرت مصر أن تنسحب من هذه المناطق دون أن تنفذ مشروعها الحيوى الذى كان يقضى بإيصال سواحل إفريقية الشرقي بمنطقة البحيرات الأستوائية وتدعيم النفوذ المصرى في السواحل الجنوبية للصومال . وإذا كانت اتفاقية الرقيق التى عقدتها إنجلترا مع مصر في عام ١٨٧٧ قد نصت على اعتراف إنجلترا بسلطان الخديوية المصرية على بلاد الصومال حتى رأس حفون إلا أنها اشترطت على تعهد الخديو بعدم التنازل لأية دولة أجنبية عن أية قطعة من هذه البلاد ، وتخويل الحكومة الإنجليزية حق تعيين قناصلها في الموانى الواقعة على سواحل البلاد المذكورة .

وتوجد لدينا بالإضافة إلى ما سجلته وثائق عابدين بعض المصادر العربية التى تعرضت لحملة الصومال الجنوبي فبالإضافة إلى كتاب إسماعيل باشا سرهنك أشار إلى حوادث تلك الحملة وتفاصيل الصدامات التى وقعت

بين الخديو اسماعيل وسلطان زنجبار المؤيد من جانب الإنجليز الدكتور محمد صبرى في كتابيه الإمبراطورية المصرية في القرن التاسع عشر ، ومصر في إفريقية الشرقية ، وقد اهتم في الكتاب الأخير بالدور الحضارى والعمراني الذى قامت به مصر مستنداً في ذلك إلى الوثائق المصرية ومشيراً بصفة خاصة إلى تقرير بعث به رضوان باشا إلى مهردار الخديو بتاريخ ١٨ شوال ١٢٩٢ الموافق ١٧ نوفمبر ١٨٧٥ يقرر فيه بعض الأعمال التى قامت بها البعثة المصرية في منطقة نهر الجب ومن ذلك إنشاء بستان مساحته مائة فدان كما ذكر في التقرير أن الأشجار كثيرة على ضفاف نهر الجب وأن خشبها يشبه الخشب الذى يرد من تركيا وطلب إرسال حطابين ونجارين وبنائين لتشييد بيوت من الحجر . كما أشار إلى وثيقة أخرى بعث بها ماكيلوب باشا في ١٤ ذى القعدة ١٢٩٢ الموافق ١٢ ديسمبر ١٨٧٥ يقول فيها إن عبد الرازق بك يطلب ٣١٢ رجلاً من جميع الحرف والمهن من أطباء ومهندسين ونجارين وزراع وخبازين وطلب أشياء أخرى كثيرة لترقية المدائن وكان عبد الرازق بك قد قام باكتشاف منطقة نهر الجب ، وإن كانت انجلترا لم تمهله لإنفاذ وإتمام مشروعاته كما لم تمهل الحملة المصرية لتنشر الحضارة في هذه الربوع المتعطشة إليها(١) .

وهناك أيضاً مجموعة من الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر (١٨٦٣ — ١٨٧٩) التى قام بجمعها وتحقيقها الدكتور شوقي الجمل وبها مجموعة من الوثائق المختارة عن حملة الصومال الجنوبي وتتبع التطورات التى مرت بها البعثة المصرية منذ صدور الأمر بتشكيلها إلى انسحابها ، وتسجيل الإتصالات والمراسلات بين الحملة والخديو في مصر ، ويتضح من هذه الوثائق التقدم الذى أحرزته الحملة المصرية في سواحل الصومال وعن ضم المصريين لقسمايو ، وعن خضوع مشايخ براوة الذين كانوا يتبعون قبل ذلك سلطان زنجبار للحكومة المصرية لاطمئنانهم إلى الأمن الذى أشاعته الإدارة المصرية فى المناطق التى كانت قد استحوزت عليها

---

(١) محمد صبرى ـ مصر فى افريقية الشرقية ص ٥٧ ـ ٥٨

ثم تسجيل لاعتراض سلطان زنجبار مدفوعاً إلى ذلك من قبل القنصل الإنجليزى جون كيرك ضد هذه الحملة ، وأخيراً انسحاب البعثة بكامل هيئتها من براوة وقسمايو وغيرها من جهات الصومال الجنوبي[١] .

والواقع أن العلاقة بين الخديوية المصرية وسلطنة زنجبار في مختلف جوانبها تحتاج إلى مزيد من الإيضاحات والدراسة التحليلية التفصيلية خاصة وأن الدور الذى قامت به الدولتان كان متشابهاً في نشر الحضارة في أواسط القارة الإفريقية كما كان المصير الذى آلت إليه ممتلكات هاتين الدولتين متشابهاً في وقوعهما فريسة للأطماع الأوربية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

ويسجل عام ١٨٨٦ و ١٨٩٠ تقسيم سلطنة زنجبار بين القوى الإستعمارية الطامعة في ممتلكاتها وهى إنجلترا وألمانيا وإيطاليا ، وتنقطع المصادر العربية التى تعالج تاريخ شرق إفريقية التى خضعت بشكل أقوى للمؤثرات الإستعمارية العنيفة ، ومع ذلك فتوجد لدينا بعض المصادر العربية المتعلقة بهذه الفترة وإن كانت لا ترقي إلى مستوى المصادر التى تعرضنا لها فيما سبق . ومن هذه المصادر تسجيلاً لرحلة قام بها السلطان حمود بن محمد بن سعيد إلى مقاطعات الشرق الإفريقى في عام ١٣١٦ (١٨٩٨)[٢] .

وقد سجل هذه الرحلة الشيخ ناصر بن سالم بن عديم الرواحى ، وهو شاعر عماني معروف كان ملازماً للسلطان ، وضمن الرحلة ترجمة للسلطان وإسم الكتاب « السيرة السنية المسماة باللوامع البرقية في رحلة مولانا السلطان حمود بن محمد سعيد بن سلطان » ومن المتوقع أن هدف هذه الرحلة محاولة السلطان تأكيد سيطرته على مقاطعات الساحل الشرقي لأفريقيا ومن المعروف أن سلاطنة زنجبار قد دأبو على القيام برحلات لتفقد شئون ممتلكاتهم نتيجة للضغط الأوربي عليها ، بل إن السلطان برغش قام برحلة إلى مسقط على أمل أن يعيد الصلة بينه وبين أبناء عمومته بعد أن وجد ممتلكاته

---

(١) شوقي الجمل ، الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر انظر وثائق حملة الصومال الجنوبى ص ١٥٤ الى ١٦٦

(٢) انظر ناصر بن سالم بن عديم الرواحى ، اللوامع البرقية طبع زنجبار ١٣١٦

في شرق إفريقيا تتقاسمها الدول الأوربية وإن كان بعد ذهابه إلى مسقط قد أدرك أن الأسرة هناك لم تكن أقل منه خضوعاً لبريطانيا . وحينماتنقل حمود بن سعيد إلى المقاطعات الساحلية في شرق إفريقيا وجد الإنجليز هم المسيطرين على الأمر فيها كما وجد القنصل البريطاني السير آرثر هاردنج هو الحاكم بأمره .

وقد سجل لنا أحد الرحالة المصريين ويدعى توفيق ميخائيل أوضاع سلطنة زنجبار في ظل السيطرة البريطانية في كتاب نشر في القاهرة سنة ١٩٠١ بعنوان حقائق الأخبار عن شرق إفريقيا وزنجبار وتعرض المؤلف في هذا الكتاب إلى وصف رحلته التى قام بها في عام ١٨٩٩ ووصف سكان زنجبار وغيرهم من سكان مقاطعات الشرق الإفريقى ولاحظ بصفة خاصة سيطرة الهنود Banians على المعاملات التجارية ، كما أورد في كتابه ترجمة للسيد حمود بن سعيد كما تعرض أيضاً لرحلة برغش بن سعيد إلى مصر بدعوة من الخديو إسماعيل بعد زيارته لبريطانيا . كما لاحظ أن السلطنة ترتبط بشعور الولاء الروحى للخليفة العثماني ، ومن المؤكد أن ذلك كان صدى لحركة الجامعة الإسلامية التى شملت أقطار العالم الإسلامى فى هذه الفترة وإن كان ذلك لا يعنى ارتباط سلطنة زنجبار سياسياً بالسلطنة العثمانية[1] .

ويمكن أن نختتم هذه المصادر بمصدر هام كتبه الشيخ حميد الدين السالمى بعنوان تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ويقع هذا الكتاب في مجلدين ، وعلى الرغم من أنه يركز على إقليم عمان شأنه شأن غيره من المصادر العمانية إلا أنه يعرض في ثنايا ذلك لصلة شرق إفريقيا بعمان خاصة ما قامت به الإمامة اليعروبية من محاولات موفقة لطرد البرتغاليين من الخليج العربي وشرق إفريقيا في النصف الثاني من القرن السابع عشر . وفيما يبدو لنا أن السالمى على الرغم من أنه عاش في الفترة من أواخر القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين إلا أنه سجل تاريخ الإمامة الأباضية في عصورها المختلفة ، معتمداً في

---

(١) توفيق ميخائيل — غرائب الأخبار عن شرق افريقيا وزنجبار ص ٩٩ — ١٠٠

ذلك على مادة أصلية وإن كنا لانعرف عما إذا كان مصدر هذه المادة لايزال موجوداً حتى الآن . كما يلاحظ اتجاه السالمى ، باعتباره أشد المتحمسين لبعث الإمامة الأباضية في السنوات الأولى من القرن العشرين ، إلى تمجيد الإمامة الأباضية مقارناً بين ما كانت عليه الإمامة من تفوق في القرن السابع عشر ، حين تصدت للبرتغاليين في الخليج العربي وسواحل الهند وشرق إفريقيا ، وما صار إليه الحكم من تفكك وانقسام في عهد آل أبي سعيد . وقد تعرض السالمى في المجلد الأول للتدخل العماني في شرق إفريقيا في عهد الإمام سلطان بن بن سيف اليعربي ، كما تعرض في المجلد الثاني لدولة البوسعيد إلى السنوات السابقة لحياته[١] . وقد قام بتحقيق كتاب السالمى ونشره الشيخ طفيش الجزائرى وهو أحد أباضى الجزائر[٢] .

هذا هو ما أمكننا الوصول إليه من المصادر المحلية والعامة التى تحدثت عن المنطقة التى تعرضنا لها في نطاق هذه الدراسة . والأمر الذى نؤكد عليه أنه لاتزال توجد الكثير من المخطوطات العربية والسواحلية في أيدى سكان المنطقة ، والواقع أننا أشد ما نكون احتياجاً لدراسة هذه المصادر واستخلاص المادة التاريخية منها لما قد تعطيه لنا من بعض الجوانب الهامة الخاصة بتاريخ المنطقة ، وإذا كان من الممكن الاعتماد على المصادر الأوربية بعد العصر البرتغالى فإن الفترة التى سبقت العصر البرتغالى لاتزال بحاجة إلى مادة تاريخية أكثر من المادة التى بين أيدينا الآن فقد لاحظنا أن المصادر العامة أو بالأحرى المتبقى لنا منها ليست موفية بالحاجة ، والمصادر المحلية العربية المعروفة لدينا ليست كافية ولا تعرض لنا التطور التاريخى لإمارات ساحل شرق إفريقيا في العصر الإسلامى باستثناء ما لدينا عن تاريخ كلوة السابق الإشارة إليه ، ولذلك فإن الاعتماد ينصب أساساً على الروايات السواحلية ، وقد يكون من حسن الحظ أن هذه الروايات متوافرة وإن كانت لاتزال تحتاج إلى مزيد من الدراسة وإزالة ما علق بها من خيال ، وينبغى أن

---

(١) مات السالمى فى عام ١٩١٣ قبل بعث الامامة الأباضية فى ذلك العام بقليل .

(٢) تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ـ للامام حميد الدين السالمى فى مجلدين .

ننوه بالجهود التى بذلها كل من Stigand و Prins و Hichens في دراسة هذه الروايات وإحرازهم نجاحاً كبيراً في العثور على سجلات لكل من تاريخ لامو وبات استخلصوا منها مادة تاريخية ذات أهمية كبيرة في تطور الإمارات الإسلامية في شرق إفريقيا(١) خاصة تاريخ الأسرة النبهانية في جزيرة بات وخبر لامو لشيبو فرج بن حمد الباقرى ، وهى مخطوطة سواحلية حققها هنشنز وأشار إليها في كتابه الإسلام في شرق إفريقيا(٢) .

وليس من شك في أن تاريخ العرب في شرق إفريقيا من الصفحات المجيدة في التاريخ الأفريقى أو التاريخ العربى في إفريقيا وأرجو أن تتاح الظروف للدارسين لاقتفاء آثار العرب في إفريقية قبل أن تضيع المدونات العربية ، أو يقتصر الدارسون على المصادر الأوربية وحدها ، فإن هذه المصادر كتبت بطبيعة الحال بالنظرة الأوربية وكان صعباً عليها أن ترى حسنة من حسنات العرب . ولذلك فقد يكون من واجبي هنا أن أدعو جامعاتنا والمهتمين بدراسة تاريخ أفريقيا بصفة خاصة إلى ضرورة الاهتمام بالمصادر العربية والاتصال بالمراكز الثقافية ، ودور المخطوطات الأوربية، والهيئات العلمية بشرق إفريقيا للتعاون في نشر التراث العربى الأفريقى .

---

(١) انظر فى ذلك : Prins, The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and the East African Coast (Arab — Shiraz and Swahili) London 1961 See also A. Warner, A Swahili History of Pate, Stigand, in the Land of Zinj London 1913, and Freeman grenville, The East African Coast selected documents from the first to the earlier 19th century, London 1962.

(٢) Cf. Hichens, Islam in East Africa.

مصادر البحث

أولا ـ وثائق غير منشورة :

وثائق عابدين : محافظ السودان السنوات المشار اليها فى الدراسة .

ثانيا ـ وثائق منشورة :

جيان : وثائق تاريخية وجغرافيـة وتجارية عن شرق افريقيـة ـ القاهرة ١٩٢٧

سجل المكاتبات السياسية فى عهد السلطان برغش بن سعيد ١٨٧٩

شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ـ القاهرة .

Ferrand — Gabriel

Docments Historiques et Textes Geographique Arabes, Persans et Turks Relatif a l'Extrene Orient de VIIIe au XVIIIe siecles, 2 Tomes Paris 1913

Greenville — Freeman

Select Documents on the East African Coast

Guillain

Document sur l'Historie Geographic et le Commerce de l'Afrique Orientale Paris 1956

Tome I, Expose Critiques de diverses Notions acquises sur l'Afrique Orientale depuis les temps le Plus Jours Jusqu' à nos Jours

Tome II, III, Relation de Voyage d'Exploration a la Côte Orientale d'Afrique. Exécuté Pendant les années 1847, 1848

Zôe March,

East Africa Through Contemporary Records. London 1961

ثالثا ـ المصادر العربية :

أحمد بن ماجد وسليمان المهرى .

راجع مؤلفات أحمد بن ماجد وسليمان المهرى عن النسخة الزنكوغرافية المنقولة عن المكتبة الأهلية بباريس والمحفوظة بدار الكتب المصرية .

أبو زيد السيرافى : رحلة التاجر سليمان ـ انظر : سلسلة التواريخ دار الطباعة السلطانية ـ باريس ١٨١١

ابن بطوطة : تحفة النظار فى عجائب الأمصار ـ مجلدين ـ القاهرة ١٩٣٣

ابن الوردى : فريدة العجائب وفريدة الغرائب .

آدم متز : الحضارة الاسلامية (مترجم) ـ مجلدين ـ القاهرة .

انور عبد العليم : أحمد بن ماجد ـ القاهرة ١٩٦٧

اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ـ ثلاثة أجزاء ـ القاهرة ١٨٩٦/١٨٩٨/١٩٢٣

توفيق ميخائيل : غرائب الأخبار عن شرق افريقية وزنجبار ـ القاهرة ١٩٠١

جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق ـ مجلدين ـ القاهرة

جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا ـ القاهرة ١٩٦٧

استقرار العرب فى ساحل شرق افريقية ـ العدد العاشر ـ حوليات كلية الآداب ـ جامعة عين شمس .

حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ـ القاهرة ١٩٥٧

حميد الدين السالمى : تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ـ مجلدين ـ القاهرة ١٣٥٠

حورانى : الملاحة البحرية فى المحيط الهندى .

دافيدسون : افريقية تحت أضواء جديدة (مترجم) ـ بيروت ١٩٦٥

زكريا القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ـ بيروت ١٩٦٠

زين الدين : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين : لشبونة ١٨٩٨

شومو فسكى (فيودور) ثلاث راهمانجات المجهولة ـ اصدار معهد الاستشراق السوفيتى ـ لينينجراد ١٩٥٧

عبد الله بن مصبح الصوافى : نقلا عن الشيخ محيى الدين الزنجبارى ـ كتاب السلوة فى أخبار كلوة ـ نشر أرثر سترونج ١٨٩٥

العقاد وجمال زكريا قاسم ـ زنجبار ـ القاهرة ١٩٦٠

كراتشكو فسكى (أغناطيوس بوليانو فتش) ـ مع المخطوطات العربية .

الأدب الجغرافى عند العرب ـ القسمين الأول والثانى ـ القاهرة ١٩٥٧

لوثروب ستودارد : ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب أرسلان ـ حاضر العالم الاسلامى ـ مجلدين ـ القاهرة ١٣٤٣

محمد صبرى : تاريخ الامبراطورية المصرية السودانية فى القرن التاسع عشر ـ القاهرة ١٩٤٨

ـ مصر فى افريقية الشرقية ـ القاهرة ١٩٣٩

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ مجلدين ـ نشر دار الرجاء القاهرة .

ناصر بن سالم بن عديم الرواحى : السيرة السنية المسماة باللوامع البرقية فى رحلة مولانا السلطان حمود بن محمد سعيد بن سلطان ـ زنجبار ١٣١٩

ياقوت الحموى : معجم البلدان ـ عدة مجلدات ـ القاهرة ١٩٠٦

رابعا ـ المصادر الأوربية :

Badger, Salil Bin Razik

History of the Imams and Seyyids of Oman

London 1871

Burton, Richard

Zanzibar city, Island and Coast

2 Vols London 1886

Ferrand, Gabriel

Les Musulumanes de Madagascar et l'iles de Commores

2 Tomes

Hichens

Islam in East Africa, London

Ingrams, Arabia and Isles

Lopes David

Historia Portuguesa no Malabar. Lispon 1898

Owen W. F.

Narrative to Explore the Shores of Arabia, Africa and Madagascar 2 Vols London 1833

Prins A. H.

The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and East Africa Coast (Arab — Shiraz and Swahili)

East International African Institute London 1961

Reinand,

Relation de Voyages fait par les Arabes et Persans a l'Inde et de la Chine

2 Tomes Paris, 1845

Ricci, A

Travels of Marcopolo

Ruete Emily

Memoires d'une Princeose Arabes Paris, 1905

Ruete, Rudolf

— Said Bin Sultan London 1929

— Dates and Refrences of the Al Bin Said Dynasty of Oman and East Africa London

— The Al Bu Said Dynasty in Oman and East Africa
Journal of the Central Asian Society Vol VXI, 1929

Stigand,
In the land of Zinj London 1913

Strong, Arthur
History of Kilwa
Journal of the Royal Asiatic Society April 1895

Warner
A Swahili History of Pate
Journal of the African Society Vol. XIV, 1913